شفيق الحوت

سميح شبيب

(محرراً)

أحمد مجدلاني

عبد الرحمن الحاج إبراهيم

قيس عبد الكريم (أبو ليلى)

أوس داوود يعقوب

عبد الرحيم ملوح

ماجد كيالي

نبيل عمرو

مواطن: المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية

رام الله - فلسطين

٢٠١٠

Shafiq al- Hout

Sameeh Shbeeb

© Copyright: MUWATIN - The Palestinian
Institute for the Study of Democracy
P.O.Box: 1845 Ramallah, Palestine

2010

ISBN 978-9950-312-57-9

This book is published as part of an agreement
of cooperation with the Heinrich Boell Foundation - Germany

جميع الحقوق محفوظة

مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية
ص.ب ١٨٤٥، رام الله، فلسطين
هاتف: ٠٠٩٧٠ ٢ ٢٩٥ ١١٠٨، فاكس: ٠٠٩٧٠ ٢ ٢٩٦ ٠٢٨٥
www.muwatin.org

٢٠١٠

يصدر هذا الكتاب ضمن اتفاقية تعاون مع مؤسسة هنريخ بول – ألمانيا

تصميم وتنفيذ مؤسسة **ناديا** للطباعة والنشر والإعلان والتوزيع
رام الله – هاتف ٠٢ – ٢٩٦ ٠٩١٩

ما يرد في هذا الكتاب من آراء وأفكار يعبر عن وجهة نظر المؤلف ولا يعكس
بالضرورة موقف مواطن ـ المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

المحتـويات

تقديم ٥
سميح شبيب

شفيق الحوت : المناضل الواقعي صاحب الحلم ٩
احمد مجدلاني

شفيق الحوت ... سنديانة فلسطين ١٧
أوس داوود يعقوب

المواقف السياسية لشفيق الحوت ٤٩
عبد الرحمن الحاج إبراهيم

«إلى اللقاء يا أبا هادر» ٥٥
عبد الرحيم ملوح

أبو هادر: الصوت الهادر كبحر يافا ٦٣
قيس عبد الكريم (أبو ليلى)

عن الراحل الكبير شفيق الحوت: سيرة شخص وشعب وقضية ٧٣
ماجد كيالي

شفيق الحوت ... حضور متجدد في الموت .. والحياة ٨٥
نبيل عمرو

تقديم

الحديث عن شفيق الحوت، هو حديث عن الوطن والوطنية، والكيانية السياسية الفلسطينية. هو حديث عن التراكم المعرفي والسياسي في إطار م. ت. ف، البيت المعنوي للفلسطينيين.

وُلد شفيق الحوت في مدينة يافا الفلسطينية في الثالث عشر من كانون الثاني (يناير) العام ١٩٣٢، أنهى دراسته الثانوية من المدرسة العامرية في يافا العام ١٩٤٨، حيث أُجبر مع عائلته على الهجرة إلى لبنان في نيسان (أبريل) من العام نفسه.

التحق بالجامعة الأميركية في بيروت العام ١٩٤٨، وتخرج منها العام ١٩٥٣.

عمل مدرساً في مدرسة المقاصد الإسلامية حتى العام ١٩٥٦، حيث انتقل للعمل مدرساً في الكويت حتى العام ١٩٥٨، عاد بعد ذلك إلى بيروت تاركاً مهنة التدريس وملتحقاً بالعمل في الصحافة مديراً لتحرير مجلة الحوادث اللبنانية، وبقي في منصبه هذا إلى العام ١٩٦٤.

ساهم في تأسيس جبهة التحرير الفلسطينية العام ١٩٦٣، كما كان أحد مؤسسي منظمة التحرير الفلسطينية، وشارك في مؤتمرها التأسيسي الذي عُقد في مدينة القدس في الثامن والعشرين من أيار (مايو) العام ١٩٦٤.

عُين في أول اجتماع للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً ومديراً لمكتب المنظمة في لبنان، حيث ترك العمل الصحافي وتفرغ من يومها للعمل السياسي.

اختير عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية بين العامين

١٩٦٦ و١٩٦٨، عاد مرةً أخرى للجنة التنفيذية في العام ١٩٩١ حتى استقال منها في أعقاب اتفاق أوسلو العام ١٩٩٣.

عاصر كافة مراحل الوجود الفلسطيني في لبنان من العام ١٩٤٨، وكان شاهداً على الحرب اللبنانية بكل تفاصيلها وأحداثها، كما كان شاهداً على الغزو الإسرائيلي للبنان، وعلى الخروج الفلسطيني منها العام ١٩٨٢.

شارك في تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية في اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة منذ العام ١٩٧٤.

تعرض لحوالي عشر محاولات اغتيال خلال مسيرته النضالية، أُصيب في بعضها، ونجا بحياته منها جميعاً.

بقي ناشطاً سياسياً بعد مغادرة قوات م. ت. ف. لبنان، وله رأيه في الشؤون الفلسطينية كافة.

كان شفيق الحوت (أبو هادر) موضع احترام جميع الأطراف الفلسطينية على اختلافها، وخارج أطر التصنيف التي اعتادت الساحة الفلسطينية عليها.

كتب العديد من الكتب، أبرزها:

١. **عشرون عاماً من منظمة التحرير ١٩٦٤ – ١٩٨٤**: دار الاستقلال للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٦.

٢. **لحظات لها تاريخ: الشركة السعودية للأبحاث والتسويق**. جدة: سلسلة كتاب "الشرق الأوسط"، ١٩٨٦.

٣. **اليسار والقومية العربية**. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٥٩.

٤. **حقائق على طريق التحرير**. (سلسلة أبحاث فلسطينية–رقم ٤)، بيروت: مركز الأبحاث – منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٦٦.

٥. **الفلسطيني بين التيه والدولة**. ١٩٧٧.

٦. **يوميات ابن البلد** (كتابات ساخرة). بيروت: دار المحرر، ١٩٧٩.

٧. **لكي نحرث في الأرض** (أحاديث مستقبلية). بيروت: دار الاستقلال للدراسات والنشر، ١٩٨٦.

٨. **اتفاقية غزة–أريحا أولاً/ الحل المرفوض** (أوراق الاستقلال). رقم ٢، بيروت: دار الاستقلال للدراسات والنشر، ١٩٩٤.

٩. **بين الوطن والمنفى** (سيرة ذاتية). بيروت: دار رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٧.

رحل شفيق الحوت في ٢ آب (أغسطس) ٢٠٠٩، وبقيت ذكراه الطيبة، وتراثه السياسي، جزءاً مهماً وبارزاً في تراكمنا المعرفي السياسي، خلال فترة تمتد إلى أوائل الستينيات من القرن الماضي.

إسهاماً في حفظ ذكراه، ووفاءً للراحل، يصدر هذا الكتاب التكريمي، بإسهامات نظرية، شارك فيها؛ أحمد مجدلاني، وماجد كيالي، وعبد الرحيم ملوح، وقيس عبد الكريم (أبو ليلى)، ونبيل عمرو، وأوس داود يعقوب، وعبد الرحمن الحاج إبراهيم.

نأمل أن يكون هذا الكتاب، إسهاماً معرفياً في ذكرى الراحل شفيق الحوت.

سميح شبيب
رام الله، ١/ ٤/ ٢٠١٠

شفيق الحوت: المناضل الواقعي صاحب الحلم

أحمد مجدلاني

شفيق الحوت: المناضل الواقعي صاحب الحلم

أحمد مجدلاني*

يكاد عام يمضي على رحيل المناضل شفيق الحوت، وكأن الأعوام تنطوي فقط لنودع بشكل متسارع أعزاءنا من مناضلي الرعيل الأول من قادة الحركة الوطنية، وتكاد الأعوام تختصر بتواريخ رحيلهم، ياسر عرفات، أبو علي مصطفى، الشيخ أحمد ياسين، جورج حبش، شفيق الحوت، محمود درويش، سمير غوشة، فما أقساها من سنوات!

وفي ذكرى رحيل المناضل شفيق الحوت، اسمحوا لي أن أشذ قليلاً عن المألوف في رثائه، وهو الذي قال في رثاء الدكتور جورج حبش: "من كثرة الموت الفلسطيني اليومي منذ عقود، فرغ قاموس المراثي، وفقدت الكلمات معناها، فماذا عسانا نقول؟".

اسمحوا لي في دقائق وجيزة هي الوقت المتاح لي أن أقف قليلاً عند سمات ومواقف لشفيق الحوت ستلقي ضوءاً على جوانب في شخصيته لم يدركها إلا المقربون منه، علّنا نفيه قليلاً من حقه علينا، وهو الذي أعطى الكثير لقضيتنا الوطنية منذ نعومة أظافره وحتى يوم رحيله، دون كلل، مسلحاً بفكره وقلمه وحلمه الكبير.

عوامل عديدة ساهمت في تشكيل فكر شفيق الحوت وثقافته، فقد تفتحت عيناه على تناقض صارخ بين الطمأنينة في كنف عائلته، وعوامل التهديد المتواصل من جنود الاحتلال البريطاني والجماعات اليهودية، والمتربصة

---

* عضو اللجنة التنفيذية لـ م. ت. ف. الأمين العام لجبهة النضال الشعبي الفلسطيني.

بمدينة يافا؛ المدينة الفلسطينية المزدهرة في أوج عطائها الثقافي والفني والاقتصادي، وكانت محطة وعيه الوطني الأولى في عمر صغير مبكر عندما اقتحم الجنود البريطانيون منزلهم وهو في السابعة من عمره، فأثار ذلك خوفه، وبرز السؤال الأول: من هم هؤلاء؟ وماذا يريدون؟ ولربما كان لهذه الحادثة التي كررها في أكثر من كتاب له الأثر الكبير في بنائه النفسي والفكري، فهو يصفها "بعد تلك الحادثة بتُّ أعرف أننا في خطر، وأن لنا أعداء، وأن هذا العدو لا يرحم، وأنه يمكن مقاومة هذا العدو، وهناك من يقاومه، فأخي جمال واحدٌ منهم". وكان استشهاد أخيه جمال، وهو في الثامنة عشرة من عمره، الحدث الثاني، الذي ما إن بدأ يستفيق من صدمته حتى وجد نفسه على متن الباخرة دولوريس متوجهاً مع عائلته إلى بيروت في رحلة اللجوء الكبرى. وتلك كانت المحطة الأهم في حياته التي يصفها بالاقتلاع من الأرض والزمان "رحلة التيه". لكنه خرج وقد أصبح متبلور الفكر ويحمل وعياً وطنياً عميقاً، بلورته دراسته في أرقى مدارس يافا وأكثرها وطنية، وعلى أيدي نخبة من الأساتذة اللامعين الوطنيين.

وكانت بيروت عاصمة الثقافة والحرية وجامعتها الأمريكية التي خرّجت أجيالاً من المناضلين امتداداً لعطاءات يافا العلمية والفكرية، فانطلق في ساحات العمل الحزبي والعمل النضالي، واختار فيما بعد ميدان الصحافة، ممارساً دور الصحافي اللامع والمناضل على الأصعدة الحزبية والوطنية كافة.

إضافة إلى إنجازاته النضالية والوطنية، ترك لنا شفيق الحوت مجموعة من المؤلفات، بعضها نشر في الصحافة على حلقات وضم في كتاب، وأخرى قام بكتابتها كاملة ونشرت، شكلت زاداً معرفياً نضالياً لنا، لكنها في الوقت نفسه كانت مرآة لشفيق الحوت الإنسان المناضل.

لقد عكست كتابات شفيق الحوت الصحافية والأدبية، حتى في مجال السيرة الذاتية، غلبة الوطني على الذاتي، بحيث تراجعت الأنا عند شفيق الحوت بتفاصيلها كافة ليحل مكانها الهم الوطني العام، إذ تكاد السيرة الحياتية الذاتية له تختصر في المحطات الثلاث السابقة التي كان يوردها ببعض التفاصيل، لتختفي البقية تماماً في كتاباته، فهو يرى الأشياء والأحداث من وجهة نظر نضالية وطنية وحدوية، وهو يناقش أدق

التفاصيل اليومية من وجهة نظر الناقد المناضل، ويرى المشكلات المتنوعة –اجتماعية أو اقتصادية– بنظرة تكاد تختصرها بمدى إيجابياتها وسلبياتها على القضية العربية والقضية الفلسطينية، وندر أن نجده يتطرق حتى في أحاديثه الخاصة، ومع الأصدقاء إلى مشاكله كإنسان، أو زوج، أو رب عائلة، فالفكر مجند ومترقب أي حدث، لقياس مدى تأثيره على القضية النضالية الوطنية.

لقد تماهت الأنا عند شفيق الحوت مع النضال، فالهم الوطني هو همه الشخصي، والنضال الوطني هو مهمته اليومية، وكل شيء في حياته الخاصة والعامة مجند في سبيل القضية، وكأنه أصبح وفلسطين شيئاً واحداً.

المناضل المخطط الحالم

كان شفيق الحوت صاحب فلسفة خاصة، فقد كان يرى أبعد من الآخرين، ويؤمن بضرورة أن نحلم. ففي العام ١٩٨١ قبل الاجتياح الإسرائيلي للبنان، والنضال الفلسطيني يتشبث في لبنان بمواطئ أقدامه مصعداً من عمليات النضال المسلح، خرج شفيق الحوت بمجموعة مقالات حول "الدولة التي نريد" محدداً سمات وشروط وتفاصيل الدولة الفلسطينية التي ستقوم، في حين كان كثيرون يعتقدون أن هذا الحديث، ما زال حديث أحلام، ليرد عليهم بالقول:

> "أوليس الحلم خيراً من الكابوس؟ فالحلم يدعو إلى التفاؤل، والتفاؤل يبعث في النفس الأمل، والأمل حافز مهم لاستمرار النضال والعمل".

وفي سياق أن هذا الحديث سابق لأوانه، جاء رده ملخصاً ما يعني أن الحلم ليس هروباً من الواقع، بل هو وسيلة تخطيط للمستقبل، وهنا تكمن واقعية شفيق الحوت التي تستند إلى الحلم المشروع، فقد قال:

> "من المنطقي والأفضل طبعاً، أن يأتي مثل هذا الحديث سابقاً لأوانه من أن يأتي بعد فوات أوانه، ولا بد لمن يريد أن يتجنب الظلمة أن يفسح للضوء أن يسبقه، فتنجلي من أمامه الدروب وينجو من المزالق والحفر، من دون الاضطرار إلى اعتماد "التجربة والخطأ"، هذه النظرة شبه الثابتة في تاريخنا النضالي المعاصر. إن الاكتفاء برفع

الشعارات القومية والوطنية، من دون رفدها بمضامين واضحة ومحددة، وبإستراتيجية مفصلة ومعقدة، لم يعد بالموقف المقبول بعد كل هذه التجارب المريرة التي عشناها وعانيناها، ولاسيما التجارب لوضع أسس سليمة للمستقبل ... ومن لا يتعلم من التاريخ، بالعمق المطلوب، يبقى عاجزاً عن صوغ المستقبل مهما حاول".

ويبلغ شفيق الحوت قمة الواقعية في صياغة الحلم–المستقبل، واصفاً شروطه للحرية والتجديد بقوله:

"إن صوغ المستقبل يحتاج إلى خيال قادر على الانطلاق نحو القادم من عقود وسنوات، غير مشدود إلى رواسب الماضي ومرارات تجاربه، ولا بد من أن يبادر "الشباب" الذين سيشكل المستقبل حاضرهم، إلى المساهمة في هذا الصوغ، فلا يتركونه حكراً على جيل سبق أن أعطى ما عنده، وربما نفذ عطاؤه فلم يعد لديه ما يقدمه".

وحتى في أوج إغراقه في الطروحات السياسية والاقتصادية والديموغرافية حول شروط الدولة المنشودة ومواصفاتها، فعندما تحدث عن اسم "الدولة التي نريد" وصلت به العاطفة والشاعرية أسمى ما يمكن أن تصل إليه، إذ يقول:

"إن "فلسطين" ومن دون أي صفة أو عبارة سابقة أو لاحقة لها –بما في ذلك كلمة "دولة"– قد يكون الاسم الأنسب والأدق والأكثر وفاء للحقيقة والمطلوب".

وتتداخل هذه العاطفة مع مجموعة من الطروحات السياسية والاقتصادية والديمقراطية المغرقة في الواقعية حول شروط الدولة ومواصفاتها لتدخل مرة أخرى القدس التي يصفها بـ "الرمز المحسوس والمفعم بالمعاني التاريخية والحضارية".

أما مدينة يافا مسقط الرأس ومرتع الطفولة، فقط كان يحلو له أن يستخدم وصف المؤرخ الفلسطيني المشهور مصطفى الدباغ لها: فهي واحة أفلتت من الجنة، وهي من القدم بحيث تبدو عواصم العالم ومدنه كأنها أطفال أمامها.

كان شفيق الحوت عندما يذكر فلسطين أو القدس أو يافا، تفيض به العواطف، وربما فاضت به الدموع.

المناضل الناقد المتهكم

بسبب حسه الصحافي الفذ، لم يكن شفيق الحوت قادراً على المرور على تفصيلات، قد لا يراها الآخرون، مرور الكرام، حتى في خضم الضغط السياسي والقهر النفسي والمرارة الإنسانية، كانت روح الفكاهة وفي بعض الأحيان السخرية المرة هي الغلاف الناقل لجوهر الحدث المؤلم. وندر أن تخلو كتاباته السياسية من محطات كهذه، مستعملاً أسلوب الوصف المباشر، أو عقد مقارنة أو توصيف موارب، أو مستحضراً حدثاً مشابهاً أو مناقضاً، "الموظف الحمار" الذي كان يستعمل عذراً لتقصير السلطة، والمرافق المسلح المفروض عليه خلال زياراته تحت ادعاء حمايته لا مراقبته، كانا مثار سخريه له.

كانت روح الدعابة التي اتسمت بها شخصيته الفريدة حاضرة في كل وقت مهما اشتدت الأزمات. ولا ينسى أصدقاؤه مقاله اليومي في **جريدة المحرر** في عموده الأسبوعي المسمى "ابن البلد"، وهو عمود كان يتناول هموم المواطن العربي واللبناني والفلسطيني على وجه الخصوص، بنظرة ثاقبة وحس فكاهة رفيع. فكان المواطن ينتظر مقالة اليومي هذا ليسخر من نفسه ومن الآخرين، وقد نجح شفيق الحوت عبر **جريدة المحرر** بالوصول إلى كل بيت في لبنان.

وقد فاجأ شفيق الحوت أصدقاءه في أحد الأيام، إثر سلسلة تصريحات إسرائيلية حول يهودية الدولة والنقاء العنصري اليهودي واستحالة حق العودة للاجئين، بمقال جاء فيه، بأن الحل ممكن للإبقاء على يهودية الدولة وعودة اللاجئين في الوقت نفسه، وهو أن يتزوج الشباب الفلسطيني من الفتيات اليهوديات، وهكذا فإن الجيل القادم سيكون عربياً فلسطينياً، لأن الأولاد يتبعون جنسية وديانة الأب عند العرب الفلسطينيين، وسيكون هذا الجيل يهودياً في نظر الإسرائيليين، لأن الأبناء يتبعون جنسية وديانة الأم عند اليهود. وهكذا ستحل المشكلة في الجيل القادم. وكان شفيق الحوت في ذلك الوقت يضع الخطوط الأساس لكتابه **لكي نحرث الأرض** الذي ضمنه رؤيته الواقعية النضالية للدولة الفلسطينية المنشودة.

لقد كانت قدرته الانتقائية في استعمال المفردات أو الصور أو التشبيهات مثيرة للإعجاب، ومؤشراً على عمق الثقافة والمعرفة التي كان يتمتع

بها، فكانت الحكمة تخرج عفوية مستندة إلى زاده الثري ذاك، ففي أحد مواقفه النقدية حول نظام صارم لمعاقبة السائقين المخالفين لقواعد السير في أحد الأقطار العربية، اعترف بأن ذلك أحزنه "ثورياً وإنسانياً"، وكان رده على السائق المذعور: "يا أخ، يبقى الخطأ دون الخطيئة، وعلينا أن لا نجعل أخطاءنا غطاء لخطاياهم. مردفاً: لربما فهمني، فالبسطاء يقتنعون بعفوية ويسر".

هذه الروح الفذة كانت تقترن بنفس متواضعة بعيدة عن الادّعاء والكبر، فحين يصف نفسه في لقاء حواري مهم بين "نخبة متباينة الفكر، رزينة رصينة، من الشخصيات اللبنانية العاملة والمؤثرة في حياة لبنان العامة"، يقول "ومثلت أنا الجانب الفلسطيني بقدر ما أستطيع ووفق معايشتي وفهمي للعلاقات اللبنانية الفلسطينية منذ العام ١٩٤٨، وصولاً إلى هذه الأيام". وكان ذلك خلال الأيام العصيبة التي واجهتها المقاومة الفلسطينية في لبنان، حين كانت المقاومة مهددة حتى في بقائها هناك".

موقف أخير للمناضل شفيق الحوت، أود أن أختم به، تاركاً لكم التأمل فيه، ففي خضم الحرب الأهلية في لبنان العام ١٩٧٥، اتصلت الفنانة الكبيرة فيروز بمكتب منظمة التحرير واللجنة التنفيذية في بيروت، مستنجدةً طالبة العون لانتشال جثة قريب لها في أشد مناطق التماس خطورة. ولم يدخر شفيق الحوت وصديقه عضو اللجنة التنفيذية الموجودان في المكتب في ذلك الحين وسعاً في الاتصال بقيادة الكفاح المسلح الفلسطينية، وإرسال مقاومين فلسطينيين تحت النار لسحب الجثمان وتسليمه لعائلة السيدة الكبيرة فيروز.

وعندما سئل شفيق الحوت عن الداعي لهذه المخاطرة، كان جوابه: لن أرفض طلباً للسيدة العظيمة فيروز، فقد أعطت هذه الفنانة لفلسطين والقدس، ما لم يعطه كثير من المناضلين على مدى سنوات نضالهم.

رحم الله أبا هادر. فقد افتقدنا بغيابه الإنسان والمناضل والصديق. وستظل الكلمات عاجزة عن رثائه.

شفيق الحوت ... سنديانة فلسطين

أوس داوود يعقوب

شفيق الحوت ... سنديانة فلسطين

أوس داوود يعقوب *

في الرابع من شهر آب (أغسطس) ٢٠٠٩، فقدت الساحة الوطنية الفلسطينية والأمة العربية المناضل القائد شفيق إبراهيم الحوت "أبو هادر" عن عمر ناهز ٧٧ عاماً بعد صراع مع المرض. وقد عاصر الراحل الكبير كل مراحل الوجود الفلسطيني في لبنان منذ العام ١٩٤٨ وحتى وفاته. وكان شاهداً على لحظات مفصليّة في التاريخ الفلسطيني واللبناني والعربي.

وشفيق الحوت، الفلسطيني المفرط في فلسطينيته، هو في حقيقة الأمر من أصول لبنانية. سافر جده إلى يافا في الزمن الذي كانت فيه بلاد الشام منطقة جغرافية واحدة. عمل في التجارة. استقر هناك. صار مختاراً للحي، حاملاً لقب "البيروتي". في ٢٣ نيسان (أبريل) سنة ١٩٤٨، أي قبل موعد النكبة الرسمي، كان معظم أفراد عائلة "البيروتي" في عداد النازحين من يافا ومن فلسطين كلها.

وقد كان باستطاعته أن يصدق وذووه أنهم عادوا إلى بلدهم الأصلي. لكن فلسطينيتهم كانت قد طغت على أي صفة أخرى. وهكذا صار "البيروتي" في يافا يلقّب بـ"الفلسطيني" في بيروت.

وليس هناك كلمات أجمل من تلك التي قالها الصحافي اللبناني الأستاذ طلال سلمان عن عروبة شفيق الحوت: "من زمان لم يجتمع لبنان وفلسطين في رجل يفاخر كل من البلدين بأنه ابنه كما اجتمعا في حياة شفيق الحوت

---

* كاتب فلسطيني مقيم في اليمن

وفي سيرة نضاله ثم في الحزن على رحيله، أمس، الأحد، كمناضل عربي وكداعية للتحرير بالمقاومة والوعي والتقدم والوحدة. شفيق الحوت، نسباً، هو البيروتي المولود في يافا، وهو، هويةً، الفلسطيني الذي يجمع في زخمه الثوري القاهرة ودمشق والجزائر والرباط والخرطوم وصنعاء والرياض والكويت وعمان بوصفها شرفة القدس الشريف".

وُلد شفيق الحوت بتاريخ ١٩٣٢/١/١٣ في مدينة يافا، وفيها أنهى دراسته الثانوية من المدرسة العامرية العام ٤٨. والتحق بالجامعة الأميركية في السنة نفسها. كان مشاكساً ومقرّباً من اليسار. اُعتُقل وهو طالب بتهمة الشيوعية، وصدر مرسوم جمهوري بإبعاده عن لبنان. "كان الحل الوحيد لإبطال الحكم هو أن أسترد جنسيتي اللبنانية. لكنني ذُهلت حين رفض والدي أن يفعل ذلك، متوهّماً أن ذلك سيعني التنازل عن جنسيته الفلسطينية. وهو ما اضطرني إلى رفع دعوى قضائية لاسترداد هويتي اللبنانية". عاد الشاب المشاكس إلى الجامعة، وحين تخرج همس له الراحل الكبير قسطنطين زريق، رئيس الجامعة بالوكالة، وهو يسلمه الشهادة: "الآن نستطيع القول إننا انتهينا من مشاكلك".

وأمضى شفيق الحوت ثلاث سنوات في التعليم الثانوي. يتذكر أنّ رئيس مجلس النواب نبيه بري كان من تلامذته. ثم بدأت رحلته كصحافي العام ١٩٥٦ في مجلة "الحوادث" اللبنانية التي كان سليم اللوزي يرأس تحريرها. وتدرّج فيها حتى صار مديراً للتحرير، وفي **الحوادث** وعبرها انفتحت أمام شفيق الحوت الطريق إلى لقاءات ومحاورات مع الرئيس جمال عبد الناصر ورفاقه في قيادة الثورة في مصر ... وهكذا كان بين الأوائل ممن عملوا لمنظمة التحرير الفلسطينية فور قيامها برئاسة أحمد الشقيري، وهي المنظمة التي ستنبثق عنها مجموعة من المؤسسات الحافظة للقضية.

أما المحاورات الفكرية التي أثارها فكانت أكثر من أن تحصى. وكان مع كلوفيس مقصود وسمير صنبر والأساتذة من آل صايغ: يوسف، وأنيس، وفايز، بين من أعطوا القضية المستوى الفكري الذي تستحق.

وكان لا بد له من التوقف "رسمياً" عن العمل في المجلة، بعد تسلمه مسؤولياته في منظمة التحرير. غير أنه لم يتوقف "عملياً" عن الكتابة في العديد من الدوريات العربية طوال خمسين عاماً، ولا عن الخطابة على مختلف المنابر، وفي مختلف العواصم.

وعبر النهوض الفلسطيني، اندفع شفيق الحوت مع رفاق له إلى تهيئة مناخ العمل السري لبعض الجبهات التي قررت اعتماد الكفاح المسلح طريقاً.

فأسس "جبهة التحرير الفلسطينية – طريق العودة" سنة ١٩٦٣؛ وكان من مؤسسي منظمة التحرير الفلسطينية، وشارك في مؤتمرها التأسيسي الذي عُقد في مدينة القدس في الثامن والعشرين من أيار العام ١٩٦٤. وهو عضو المجلس الوطني الفلسطيني منذ المؤتمر التأسيسي الأول؛ واختير عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير بين العامين ٦٦ و٦٨، وعاد مرةً أخرى للجنة التنفيذية في العام ٩١ حتى استقال منها في أعقاب اتفاق أوسلو العام ١٩٩٣.

وعُين في أول اجتماع للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً ومديراً لمكتب المنظمة في لبنان. وما إن وصلت قيادة حركة "فتح" إلى الإمساك بمنظمة التحرير، وأزاحت الزعيم الوطني الراحل أحمد الشقيري، بعد هزيمة ١٩٦٧، عن موقع الرئاسة، انكفأ شفيق الحوت مؤقتاً ... ثم قبل بأن يعود لتولي منصب مدير مكتب المنظمة في بيروت مجدداً.

وقد شارك في كتابة خطاب ياسر عرفات الذي ألقاه في الأمم المتحدة في سنة ١٩٧٤، إلى جانب نبيل شعث، ووليد الخالدي، ومحمود درويش، وصلاح الدباغ، وكان في عداد الوفد الذي رافق عرفات إلى مقر الأمم المتحدة في نيويورك.

وعُين ناطقاً رسمياً باسم الوفد الفلسطيني إلى الأمم المتحدة خلال انعقاد دورات الجمعية العامة منذ سنة ١٩٧٤ فصاعداً. وبهذه الصفة، قام بجهد إعلامي كبير في الولايات المتحدة، ولاسيما في سنتي ١٩٧٨ و١٩٧٩، وألقى محاضرات في عدد من الجامعات البارزة مثل كولومبيا، وهارفارد، وبرنستون، وربطته علاقات وثيقة جداً بإدوارد سعيد، وهشام شرابي، وإبراهيم أبو لغد، ومحمود درويش، وإسماعيل شموط، وكثيرين غيرهم.

وعلى الرغم من العلاقة الإنسانية الطيبة التي ربطته بالزعيم الراحل ياسر عرفات، فإنه كان دائماً في صفوف المعارضة. صاحب الجملة الواضحة والرأي المستقيم سبّب صداعاً دائماً لأبي عمار ولقادة فلسطينيين كثيرين، وكان –رحمه الله– شديد الانتقاد لقيادة وسياسات منظمة

التحرير الفلسطينية، ويتبين لنا ذلك عندما نقرأ وجهة نظره في اتفاقية أوسلو، والأسباب التي دعته للاستقالة من تنفيذية منظمة التحرير، كتب الأستاذ الحوت:

" لأن القيادة الفلسطينية لا تملك إستراتيجية، ولأنه لا ديمقراطية فيها، ولأنها مرؤوسة بشخصية مصرة على فرديتها، وصلنا إلى دهاليز الدبلوماسية السرية. فكان ما كان من توقيع على اتفاقية أوسلو بمضمونها السياسي المجحف ونتائجها المعروفة. وعلى الأثر استقلتُ ومحمود درويش، وأنا سعيد بهذا الموقف حتى لو كنت على خطأ. فقد كان ضرورياً أن يخرج فلسطيني على مستوى القيادة، ويتخذ موقفاً، ويصمد عند هذا الموقف، لأن –للأسف– كثيراً من مواقف القادة عندنا كانت تتغير وتتبدل مع الزمن، ما أفقدها المصداقية.

اتفاقية أوسلو تم التوقيع عليها، وهي حقيقة مادية. وأوسلو هي ثلاثون ألف شرطي، وألفان ومائتان وخمسون مديراً عاماً. هل تصدقون أن السلطة الفلسطينية فيها ٢٢٥٠ مديراً عاماً؟ أي ما يعادل ضعفي عدد المدراء العامين في جمهورية الصين الشعبية. السلطة الفلسطينية أصبحت حقيقة على الأرض، لها شؤونها، ولها مصالحها، ولها شركاتها ولها ولها ... وطبعاً لها رئيسها الذي يصر على أنه رئيس، وهو يمارس وكأنه رئيس دولة مع أن هذا غير صحيح. ويسميها بالأراضي المحررة، وهي غير محررة، وهو نفسه لا يملك الحق في الخروج من قطاع غزة والضفة الغربية ودخولهما دون إذن مسبق من الحكومة "الإسرائيلية". لا أريد أن أركز على موضوع أوسلو لأننا كتبنا فيه، وقلنا فيه الكثير. ماذا كان موقف المعارضة؟ اكتفت بالقول لا لأوسلو! كلنا في السلطة وفي المعارضة في أزمة، لأن الأداء السياسي للسلطة الفلسطينية هو أداء فاسد، وأداء سلبي، وأداء يهدد بالمزيد من التنازلات. بدأ الفساد قبل أن يبدأ البناء، وبدأ الانحلال والهرولة للأسف في الصف الفلسطيني نحو العدو الصهيوني بشكل لا يليق بتاريخ هذا الشعب الفلسطيني وتراثه، والذي ما زال مشرذماً ومتابعاً طريق النضال من أجل تحقيق أهدافه الوطنية".

وفي أعقاب حادث اختفاء طائرة "أبو عمار" في نيسان ١٩٩٢ ونجاته، يكتب الحوت موقفه من الحدث ومن الرجل وراء الحدث: "وبقدر فرحتنا بنجاة "أبو عمار"، كان هناك عتب وربما غضب عليه، لأن غيابه كشف

عيوب "التفرد" بالقيادة، إذ كان توقيعه وحده هو المعتمد سواء لتوقيع اتفاق مع دولة أو لشراء بطانيات للجنود".

ويتصاعد موقف الحوت حدة بخصوص تفرد "أبو عمار" بالقيادة بقوله: "وفوجئت أكثر أنه ركز في دفاعه عن أسلوبه في التفرد بشكل يثير مزيداً من النقد، بدلاً من امتصاص ما هو قائم، وخصوصاً عندما أشار إلى موضوع الخزنة".

ويضيف الحوت حول ارتفاع منسوب أعصاب "أبو عمار" في هذا الأمر بقوله:

> "باختصار، وبألم شديد، لأني أود الرجل وأقدر له العديد من مزاياه، أقول إن "أبو عمار" بعد حادثة الطائرة تحول إلى شخص آخر، وعلى عكس ما تمنى له كل محبيه المخلصين، فهو ازداد فردية أضعافاً مضاعفة، ووقع في وهم أنه معصوم، صاحب رؤى، وترعاه عناية إلهية خاصة، كما أنه تماهى مع فلسطين إلى شفير الخلط بين الحقيقة والخيال".

منظمة للتبرير لا للتحرير

في ٢٠٠٠/٢/١١ كتب شفيق الحوت:

> "لأول مرة منذ قيام منظمة التحرير الفلسطينية، التي كان لي شرف الإسهام في تأسيسها، وقضيت العمر في النضال تحت لوائها، لم أتلقَّ الدعوة للمشاركة في أعمال "المجلس المركزي" المنبثق عن المجلس الوطني الفلسطيني الذي لم أتغيب عن حضور أية جلسة دورية أم استثنائية من دوراته، إلا تلكما الدورتين الأخيرتين، اللتين تم في الأولى منهما التنازل عن الميثاق الوطني، والثانية التي عقدت على "شرف" الرئيس كلينتون ليؤكد المجتمعون إليه تنازلهم مرة أخرى عن ذلك الميثاق.
>
> وحقيقة الأمر أني لم أتوقع مثل هذه الدعوة، ولو تلقيتها لما لبيتها، ولم أعد أعرف أصلاً إذا ما زلت عضواً في هذا المجلس أم لا، شأني شأن العديدين غيري من ممثلي شعب فلسطين في الشتات. كما أني لست واثقاً فيما إذا ما زال هذا المجلس شرعياً وفق النظام الأساسي للمنظمة.

منذ التوقيع على أوسلو، والشرخ الذي أصاب هيكلية المنظمة، وما تبع ذلك من إلغاء لميثاقها، لم تعد منظمة التحرير الفلسطينية هي المنظمة ذاتها التي عرفتها جماهير شعب فلسطين وأمته العربية، إذ تحولت من منظمة لتحرير فلسطين إلى منظمة لتبرير التنازل عنها، أرضاً وشعباً وقدساً.

وقد سئلت مرة عن وضع المنظمة الراهن، فقلت إنها في "غرفة العناية المركزة" في غيبوبة شبه كاملة، وليس فيها من متحرك سوى "إبهامها" الذي تمسك به القيادة الراهنة "ليبصم" على وثيقة اتفاق الحل النهائي، ليتم فور ذلك إصدار نعي رسمي لها تحت عنوان "سبحان الحي الباقي" وإسدال الستار عليها وعلى كل من استشهد تحت راياتها، وكل من "تلطخت يداه" بدماء العدو "الإسرائيلي" وما يزال يقبع في سجون "إسرائيل" ومعتقلاتها.

هذا هو واقع منظمة التحرير الفلسطينية الراهن، والنهاية التي وصلت إليها منذ أن تبادل السيد ياسر عرفات وإسحق رابين ما سمي برسائل "الاعتراف المتبادل"، في التاسع من أيلول/سبتمبر ١٩٩٣ التي مهدت لاتفاقية أوسلو والتوقيع عليها في الثالث عشر من الشهر ذاته. ولا داعي لتكرار وقائع مسلسل التنازلات التي تم ارتكابها باسم المنظمة منذ ذلك التاريخ وصولاً إلى اتفاقية شرم الشيخ وما يدور حالياً، بالسر والعلانية، من مفاوضات لوضع إطار اتفاق للحل النهائي".

وبعد استقالته من مؤسسات المنظمة، أعطى الفقيد كل جهده للعمل على تطوير أشكال الحراك الشعبي الفلسطيني، بهدف تنظيم النضال الجماهيري من أجل العودة للوطن المحرر السيد. ولهذا كان في مقدمة المؤسسين لهذا العمل الذي تشكلت مؤتمراته الفاعلة في كل مناطق اللجوء والاغتراب. وفي خضم عمله من أجل مأسسة هذا الجهد الشعبي وتفعيله، ظل يناضل من أجل إعادة بناء منظمة التحرير على أساس ميثاقها القومي/الوطني، لتكون حاضنة للقوى الوطنية، والإطار الفاعل لكفاحها الوطني.

وقد تعرض المناضل شفيق الحوت لحوالي عشر محاولات اغتيال، أُصيب في بعضها، ونجا بحياته منها جميعاً.

وفي خضم هذا النضال، وجد شفيق الحوت وقتاً، ليؤسّس عائلة مع زوجته بيان عجاج نويهض شريكته في الأصل اللبناني والنضال الفلسطيني، وصاحبة الكتاب الشهير عن مجزرة صبرا وشاتيلا. أنجبا بنتين وصبياً. الثلاثة تخرّجوا في جامعات عريقة ويحملون شهادات دكتوراه.

ومنذ عامين، أسّس أبو هادر موقعاً له على شبكة الإنترنت. في الصفحة الرئيسية للموقع، وضع صورة لشاطئ يافا، ونصباً لإحدى ساحاتها. كأن لديه رغبة في رؤية يافا؟ يجيب: "عن طريق الإنترنت، توطّدت علاقتي –أخيراً– بمَن بقي من أهلي هناك. بكيت حين التقيتهم في عمّان. أعترف بأنّ لديّ حنيناً قوياً. كانت هناك فرصة لزيارتها بعد أوسلو. هذا كان جزءاً من مغريات ذاك الاتفاق. كثيرون حاولوا إقناعي، لكنّني رفضت. أوّلاً: خشيت على الذكرى من الواقع الذي سألقاه هناك. ثانياً: يستحيل أن أدخل مدينتي بإذن ممّن يحتلها".

لكن ألا يتمنّى –بعد عمر طويل– أن يُدفن في مقبرة يافا التي حسدَ صديقه إبراهيم أبو لغد لأنه دُفن فيها؟ يجيب: "إذا استطعت أن أُرجع عظامي إلى يافا. لِمَ لا؟ سيكون ذلك تتويجاً لنضالي الطويل".

نعم، نقولها بحزن شديد ومرارة، لقد رحل أبو الهادر بعد أن أفنى حياته في النضال، وقبل رحيله بفترة قال لصديق له: "لا أخفيك أنّي محبط منذ أوسلو. كابرتُ كشخص ناضل طويلاً. لكني كنت غارقاً في حفرة يأسي. ثم جاء انتصار حزب الله في تموز ٢٠٠٦ ليخرجني من تلك الحفرة. صار لدي شعور بأن الكفاح لا يزال ممكناً، وأننا ربما نكون موعودين بمستقبل آخر وبشخصيات كالتي نفقدها".

و"بين الوطن والمنفى"، سيرة إنسان صادق، عاش حياته وقضى نحبه وهو أمين على الوطن، وعلى الحقوق التاريخية لشعبنا الفلسطيني في أرضه المغتصبة، سيرة تروي رحلة نضال وكفاح طويلة عاشها شفيق الحوت بحلوها ومرها. وقد آثرت أن أقتطف من سيرته العطرة بعضاً من فصولها.

مع أبي الهادر .. ذكريات مبتدؤها يافا

(١)

وثيقتان رسميتان تثبتان أني ولدت في مدينة يافا في فلسطين، وذلك في الثالث عشر من كانون الثاني/يناير ١٩٣٢، وأن اسمي "شفيق"، واسم والدي "إبراهيم"، واسم والدتي "تحفة"، وشهرة العائلة "الحوت".

والوثيقتان صادرتان عن حكومة الانتداب البريطاني لفلسطين: الأولى عن دائرة الصحة، وهي شهادة الميلاد، أو ما كان يسمى "الكوشان"؛ الثانية عن دائرة الهجرة والسفر، وهي جواز السفر الفلسطيني الذي كان يحمل الرقم ٢١٢٠٢٣.

وليس في حيازتي الآن أي من الوثيقتين؛ فقد خلفت "كوشاني" في درج مكتبي في منزلنا في يافا عندما غادرنا المدينة فجأة تحت وطأة الإرهاب الصهيوني سنة ١٩٤٨. أمّا جواز سفري فقد صادره الضابط "الإسرائيلي" من درج مكتبي في منزلنا في بيروت عندما اقتحم الصهاينة القطاع الغربي من العاصمة اللبنانية في سنة ١٩٨٢.

(٢)

كانت والدتي، التي لا أدري لماذا كان يثير اسمها دهشة من يسمعه أول مرة، والتي توفيت في سنة ١٩٩٢، تؤكد هذه المعلومات وتستحلي استعادة ما أحاط بها من تفصيلات كلما كانت تسنح لنا فرصة اللقاء واستحضار ذكريات أيام زمان.

مما قالته إن ليلة مولدي كانت ماطرة، وإن المخاض جاءها وهي تجلس حول الطبلية مع والدي ومن سبقني من إخوتي لتناول العشاء. ولمّا سألتها إن كانت تذكر ماذا كان طبق العشاء تلك الليلة، ردت والابتسامة تملأ وجهها الجميل: "ملوخية"، وعندئذ فقط اكتشفت لماذا تنتابني نوبة من العطس كلما أكلت هذا الطبق اللذيذ، أو هكذا أظن على الأقل.

تضيف الوالدة أن ولادتي كانت ميسرة، لا لأني كنت سابع بطن لها، وإنما لأني كنت أول من ولدته وهي مستلقية على فراشها وأمامها لأول مرة قابلة قانونية تحمل شهادة رسمية وترخيصاً لممارسة المهنة. إن طيف تلك السيدة، وكان اسمها "زينب قباني" ما زال يراود خيالي لما كان يثيره

حضورها من فضولي، إذ كانت كثيرة التردد على منزلنا وأشرفت علي ولادة من لحق بي من بطون. كانت أول سافرة عرفتها في حياتي، وبدلاً من الملاءة السوداء والحجاب، كانت تلبس معطفاً طويلاً وتلف شعرها داخل شال من الحرير الأبيض. كانت تدخن وتتشاوف على من حولها بـ "بز" السيجارة الطويل. في تلك الأيام لم يكن الصراع مقصوراً على الحجاب والسفور بين النساء، وإنما الرجال كذلك كانوا قد بدأوا خوض المعركة بين القمباز والبنطلون، أو بين العربي والفرنجي. والدي وحده صمد حتى آخر عمره في نيسان/أبريل ١٩٧١، من القرن الماضي، ولم يخذل القمباز وملحقاته بينما لحق جميع أشقائه، وهم أصغر منه، بالموضة المستجدة.

سألت والدتي عن سر المشهد الأول الذي يتردد في خاطري كلما تذكرت طفولتي، وهو عبارة عن شجرة "تمر حنة" وارفة الغصون بالقرب من بئر فوقها قبة لها فتحة، وفوق الفتحة سطل يتدلى من طرف حبل يلتف على خشبة، فقالت إن ذلك جزء من "قاع" الدار التي ولدت فيها، والتي تقع في زاروب متفرع من يمين "شارع العالم"، ثاني أهم شارع في "حي المنشية"، على بعد أمتار معدودة من دكان الوالد، الذي كان يمارس التجارة ودور "المختار" نيابة عن والده الذي كان يُعرف بالمختار "البيروتي"، وذلك لأسباب أرى ذكرها الآن استكمالاً لتوضيح هويتي.

في أوائل التسعينيات من القرن التاسع عشر، هاجر جدي "سليم يوسف الحوت" من بيروت إلى فلسطين هرباً من الخدمة العسكرية، وربما سعياً وراء رزق أوفر. واستقر في مدينة يافا حيث كانت سبقته إليها شقيقته الكبرى بحكم زواجها من أحد تجار المدينة المعروفين من آل صابر. ويبدو أن المقام طاب له في المدينة التي كانت تدعى "بلد الغريب" لكثرة من فيها من الوافدين من مختلف الأقطار العربية، وحتى من مدن فلسطين بالذات. ولو أضفت ياء النسبة إلى أي قطر أو مدينة لجعلت منه اسم شهرة لعائلة يافية: المصري؛ اليماني؛ السوري؛ النابلسي؛ الخليلي؛ الغزاوي؛ القدسي؛ البيروتي. فلمّا تطورت أوضاع جدي، وأصبح واحداً من كبار تجار البرتقال في المدينة و"مختاراً" للحي الذي ساهم في إعمار معظم الجديد من بيوته ومرافقه، اكتسب شهرة وشعبية لأنه كان "يختم" المعاملات مجاناً من غير رسوم، بل إنه ترك "الختم" في عهدة والدي ليقوم بالمهمة نيابة عنه كما قلت قبل قليل. وبسبب لهجته البيروتية التي واكبته طوال عمره حتى وفاته، اشتهر بكنية انتسابه إلى بيروت أكثر من انتسابه إلى أسرته.

عندما وافته المنية في أواخر سنة ١٩٤٨، في بلدة سوق الغرب التي اختارها مصيفاً حتى يعود إلى يافا، جمع أبناءه من حوله وحدثهم عما ينوي القيام به من قلع وزرع في بيارته التي أنشأها وحفر بئرها –قبل أن أولد بعامين– في قرية "القسطينة" قرب مدينة المجدل شمال ما يعرف اليوم بقطاع غزة. أغمض عينيه، ومات، فرحلت الروح إلى حيث تهوى، وأمّا الجسد فلحق بالسلف الصالح ممن سبقوه إلى مقبرة الباشورة في بيروت، أمثال الشيخين الجليلين محمد وعبد الرحمن الحوت، رحمهم الله جميعاً.

(٣)

انتقلنا من البيت الذي أبصرت النور فيه إلى آخر لا يبعد عنه سوى أمتار، لكنه يطل مباشرة على "شارع العالم". كان البيت الجديد متميزاً بحديقة واسعة، على طرف منها شجرة توت قديمة مطعمة بأنواع مختلفة منها الأسود والأحمر، الحلو والحامض؛ وفي الوسط شجرة عناب باسقة. أظن أني كنت في الخامسة ساعتئذ لأني لن أنسى أول دخولي المدرسة، وكانت مدرسة خاصة وتابعة لـ"جمعيّة الشبان المسلمين". لا أنسى ذلك اليوم لأني كنت متهيئاً لدخول المدرسة الحكومية، لكن لسبب تافه لم أعد أذكره، وجدت نفسي في مدرسة غير رسمية. وفي فلسطين، في تلك الأيام، كان الصيت الحسن للمدارس الرسمية لا الخاصة، على الرغم من مجانيتها أو أقساطها الرمزية. على كل حال لم أندم –فيما بعد– على ما حدث، لأنني عندما تقدمت لامتحان القبول في العام الذي تلا، لم أنجح فحسب، بل قفزت أيضاً عن عام مدرسي كامل، ومن الصف الأول الابتدائي إلى الثالث رأساً، وإلى كتاب **القراءة الجديدة** الجزء الثالث من أعمال المربي العظيم خليل السكاكيني.

وفي بيتنا الجديد هذا أحسست بأول تماس مباشر مع "مشكلتي" كفلسطيني، وكنت في السادسة أو السابعة من عمري. ففي فجر ذات يوم من صيف سنة ١٩٣٨، صحوت مذعوراً نتيجة طرق على باب منزلنا، من جانب زمرة من الجنود البريطانيين، بصحبتهم مجندة يهودية. أمر ضابطهم أبي وأشقائي الأكبر مني بمغادرة المنزل إلى ساحة الحي حيث كان سبقهم إليها العشرات من شباب الحي ورجاله. وأومأ أحد الجنود إليّ بحربة بندقيته كي أجلس على حصيرة كانت مفروشة قرب الحديقة، ففعلت وعيناي معلقتان بوالدتي التي كانت تتعارك مع المجندة رافضة السماح لها بأن تفتشها لأنها صائمة ومتوضئة! قلبوا البيت، ومزقوا

الفرش، وخلطوا الزيت بالرز وبالدقيق والكاز، وسرقوا ما عثروا عليه من القليل الذي كانت والدتي تدخره وتعتز به من ذكريات عرسها.

بعد غروب الشمس، ومضي ساعات طويلة وهم تحت شمس الصيف المحرقة، أفرج الجنود عن الموقوفين في الساحة وعاد الرجال إلى منازلهم، بمن فيهم والدي وأشقائي، فاستقبلتهم الوالدة بحمد الله وشكره على سلامتهم. وبعد أن اجتمع الشمل، وتأكدنا من رحيل الجنود من الشارع، أخرجت والدتي من صدرها جسماً غريباً وسألت: "ما هذا... ولمن هو منكما"، مشيرة إلى أخويّ الأكبر مني، مصطفى وجمال.

"هذه قنبلة". قال والدي وهو يتناولها من والدتي، بينما أنكر أخواي أي علاقة لهما بها. غير أني غريزياً كنت واثقاً بأنها تخص الأصغر منهما، أي "جمال"، وكان لا يزال في الرابعة عشرة من عمره. وتأكدت من ذلك عندما رأيته يبكي بصمت وهو يرى والدنا يتسلل ليخفيها بعيداً عن البيت.

تلك الليلة استشعرت أننا في خطر، لا كأسرة، وإنما كشعب، وأن لنا أعداء، وأنهم قساة لا يرحمون ... كما استشعرت أن من الممكن مقاومة هذا العدو، وهناك من يقاومه فعلاً، وأن أخي واحد منهم. عندما صحوت في اليوم التالي كان "جمال" قد أصبح مثلي الأعلى بعد أن ترك بصمة لن تمحى على مسار حياتي.

ومن يومها اتسعت دائرة فضولي، فصرت أكثر فهماً لما أقرأ في الصحف، وأتابع الإذاعات، وأستفسر عما لا أدركه من أخي. وكانت الحرب العالمية الثانية قد اشتعلت. وبات الكل ينتظر نهايتها، والناس في المقاهي تتابع نشرات الأخبار باهتمام وانتباه وصمت، تقطعه بعض همسات الدعاء بالنصر لهتلر، أو "أبو النمر" كما كان يسميه البعض من قبيل التمويه. شعار الناس كان بسيطاً وساذجاً وهو "إن عدو عدوي صديقي"، وبريطانيا حليفة الصهاينة عدوتنا. لم يكن يومئذ ثمة وعي على فرق بين يهودي وصهيوني أو ألماني ونازي.

إن المشهد الذي لا يفارق ذاكرتي، هو تلك الحلقة من بسطاء الناس في المقهى القريب من منزلنا، مساء كل يوم للاستماع إلى أخبار "أنقرة" التي كان حيادها يسمح لها بإذاعة أخبار يستحيل بثها من الإذاعات العربية. أما أخبار "برلين" والاستماع إلى يونس البحري وهو يلعلع بصوته

"حي العرب"، فكان من المحرمات في المقاهي وتقود المتلبس بارتكابها إلى معتقل "صرفند" أو سجن "عكا" من دون تحقيق.

في الأعوام الخمسة التي صرفتها في مدرسة "المنشية للبنين" الابتدائية، تضاعف وعيي وازدادت أسئلتي عن كل ما كان يثير فضول صبي ما بين السادسة والحادية عشرة من عمره. تناوب مديران على إدارة المدرسة: الأول لبناني من صيدا هو الأستاذ سعيد الصباغ، الذي لا تزال أطالس الجغرافيا التي خططها ورسمها تطبع حتى هذه الأيام؛ والثاني هو الأستاذ جمال العلمي، وهو فلسطيني من غزة. وكان الاثنان شديدي الصرامة ونكاد نرجف إذا ما صادفناهما في الملعب، أو في الطرقات، أو بين الصفوف. كانت "العصا" واحدة من أهم أدوات التربية في تلك الأيام، ويتفنن بعض الأساتذة في اختيار خشبها ومدى طولها وعرضها!

كثيرون هم الأساتذة الذين علموني في تلك الفترة ولا أزال أذكرهم بالخير، غير أن واحداً منهم كان الأكثر تأثيراً فيّ، وربما في كثيرين غيري، وهو الأستاذ زكي الدرهلي، وذلك لشخصيته الودودة على الرغم من صرامتها، ولأنه –وهذا هو الأهم– كان من أشهر لاعبي كرة القدم في النادي الرياضي الإسلامي في يافا. كان يلعب "جناح أيمن"، ويلقبه المعجبون به بـ"أبو الرجل الذهبية". وكان معروفاً بوطنيته، وسقط شهيداً في حادث إرهابي صهيوني مجرم أدى إلى نسف أحد مراكز الدولة الرسمية في يافا سنة ١٩٤٧.

ومن أفضال هذا المدرس علينا ترغيبنا في ممارسة كل أنواع الرياضة الممكنة، على الرغم مما كانت تفتقر المدرسة إليه من وسائل ومعدات وملاعب، ولاسيما للعبة كرة القدم التي كان الكل يعشقها. ومن حسن الصدف أن كان هناك ساحة كبيرة مهجورة تفصل ما بين أحد أطراف حيّنا و"تل أبيب". وكانت باستمرار ميدان صراع بيننا وبينهم. وكان ثمة اتفاق غير مكتوب فرضته موازين القوى بين صبياننا وصبيانهم، يقضي بأن نتركه لهم ليلعبوا فيه يوم السبت، يوم عطلتهم. فلمّا انتظم فريقنا واستدعت الحاجة إلى ملعب مناسب، ألغينا الاتفاق واحتكار اليهود للملعب يوم السبت، وذلك بتحريض من أستاذنا باعتبار أن الأرض أرضنا ... وليست لأحد غيرنا.

(٤)

كنت قد بلغت الثانية عشرة عندما بدأت عامي الثانوي الأول. وكانت "العامرية" واحدة من أحدث الثانويات في فلسطين وأجملها، ولم يكن من ثانوية رسمية غيرها في يافا ومحيطها من القرى المجاورة. لذلك، كان يتجمع فيها نخبة الطلاب المتفوقين في الابتدائية من عشرات المدارس، ويعمل فيها نخبة من المعلمين المتخرجين من أعلى معاهد التعليم في فلسطين، ومن جامعات مصر، وجامعة بيروت الأميركية. وقد كانت "العامرية" واحدة من أهم محطات حياتي الثقافية والوطنية، وإني واثق بأن كل من رافقتهم من زملاء يشاركونني هذا الرأي ويؤكدونه.

ولـ"العامرية» توأم، هي "الزهراء" للبنات، وكانت تقع على الرصيف المقابل. لها اللون نفسه، وكان أخضر، واليافطة ذاتها من البلاط البورسلين الأصفر، والأسوار نفسها من أشجار البرتقال والليمون. ولا شك في أن هذه الجيرة كانت حافزاً على الإسراع في إضافة بند إلى أحاديثنا عن ذلك "الجنس" الآخر المختفي وراء تلك الأسوار. إنها بداية المراهقة بكل ما فيها من تغيرات وتحولات وفضول ومشكلات، وليس من مرشد تربوي أو مستشار نفساني، أو حتى كتاب مفيد.

الكتاب الوحيد الذي وقعت عليه أيدينا في "مكتبة" المدرسة كان بعنوان "رجوع الشيخ إلى صباه"، ولا أعرف كيف وصل أصلاً إلى رفوف المكتبة. وعندما سمع عنه أمين المكتبة متأخراً سحبه وأخفاه. وهذا "الكتاب" لمن لم يسمع به، هو من تراث قديم يتحدث عن فنون الممارسة الجنسية بشكل فضائحي يضاهي "أدب البورنو" المعاصر!

كانت بيوتنا لا تقل محافظة عن المدرسة، ولم يكن لنا –كمراهقين– من سبيل للتعلم غير بعضنا البعض، ولاسيما ممن كانوا "أكبر منا بيوم وأوعى منا بسنة" كما يقول المثل، وأحياناً بتحريك بعض المشاغبين في الصف –ولكل صف مشاغبوه– لاستفزاز أستاذ الدين أو الشريعة بأسئلة جريئة نسبياً. وأذكر واحداً من هؤلاء الأساتذة كان يحلو له الكلام المباح أحياناً، فيتنحنح عندما يُسأل، ثم يقول بصوت متهدج: "يا شباب لا حياء في الدين"، ثم ينطلق بفأفأة وهمّه الأكبر توضيح ما هو حرام وما هو حلال، لكن من دون أية شروح فيزيولوجية أو نفسية أو اجتماعية للعديد من الأسئلة التي تطرح نفسها مع بدايات وعي الأولاد على الغريزة الجنسية!

غير أن اقتصار تعليمنا على ما هو حلال أو حرام لم يبدد هواجسنا ومخاوفنا من جملة مسائل كانت بحاجة إلى توضيح، أذكر منها أربعاً على الأقل: الأولى عن الاستمناء باليد، وما كان يتردد من مخاطر هذه العادة "السرية»؛ الثانية عن الإصابة بالغونوريا، أو "التعقيبة" كما كنا نسمي هذا المرض. ومن حظ جيلنا أن "البنسلين" كان بدأ ينتشر بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، سنة ١٩٤٥، الأمر الذي جعل العلاج من هذا المرض سهلاً وغير مؤلم كما كان من قبل؛ المسألة الثالثة كانت عن مرض السفلس أو الزهري، الذي كانت سمعته مخيفة كما هي سمعة مرض "الإيدز" هذه الأيام، وينتقل عن طريق الممارسة المباشرة؛ أمّا المسألة الرابعة فكانت عن اللواط واللواطيين، وكان التحذير من هذا الموضوع في منتهى الشدة والصرامة، فهو حرام وعار وشنار ونبع لكل الأمراض الخبيثة. وكنا ننبذ كل من تحوم الشبهة من حوله بأنه شاذ. ولو قيل لأستاذ الدين في تلك الأيام إنه سيأتي يوم تعتبر فيه "المثلية" أمراً مقبولاً يشرعها القانون ويحميها، لشد ما كان تبقى من شعر رأسه واعتبر ذلك من علامات قيام الساعة.

وكما كانت تعكس "العامرية" واقع البلاد الاجتماعي، كانت كذلك تعكس واقعها الوطني، وتشكل في هذا الواقع رأس حربة لجميع مدارس يافا، وربما مدارس فلسطين، في تحريك الشارع الوطني وتحريض الجماهير على الثورة ضد التحالف البريطاني–الصهيوني، لدحر الاستعمار والحيلولة دون تحقيق مشروعه بإقامة وطن قومي لليهود فوق تراب فلسطين الوطني.

ولذلك أسباب عدة لا بد من إيجازها، قبل أن أُتهم بالانحياز المبالغ فيه إلى يافا ومدرستها:

أمّا السبب الأول فهو الالتصاق الجغرافي بين يافا و"تل أبيب"، ولطالما أثارت ضربة كف أو طعنة سكين أقدم عليها عربي ضد يهودي، أو العكس، حالة الاستنفار العام في المدينة فتقوم التظاهرات وترتفع الدعوة إلى الجهاد والكفاح.

وأمّا السبب الثاني فهو كون يافا عاصمة الصحافة الفلسطينية، الأمر الذي منحها دوراً رياديا في التوجيه الوطني، ولاسيما أنه لم يكن غير الصحافة المكتوبة من وسيلة للإعلام.

وأمّا السبب الثالث فهو أن يافا لم تكن كغيرها من المدن العربية التي تهيمن العائلات الوجيهة على قرارها السياسي نتيجة غنى أو إقطاع موروث، فكان القرار السياسي فيها رهناً بإرادة الهيئات الشعبية، وفي طليعتها الطلبة والعمال، بعيداً عن هيمنة الوجاهة والثراء.

وأمّا السبب الرابع فهو وجود هذا العدد الوفير من خيرة مثقفينا في سلك التعليم، وخصوصاً في "العامرية"، الأمر الذي ساهم في صنع أفكارنا وتوجهاتنا كطلبة يحيون مرحلة التفتح والتلقي، ويستعدون لتحمل مسؤوليات الرجال.

هناك مجموعة كبيرة من أساتذة "العامرية" تركت آثارها الإيجابية في جيلنا ثقافياً ووطنياً، وكان لكل واحد طريقته في أداء مهمته التربوية. من هؤلاء أذكر أول من أذكر المرحوم شفيق أبو غربية الذي كان يعلم الإنكليزية واللاتينية، وهو من الخليل من عائلة كريمة معروفة وشقيق صديقنا ورفيقنا المناضل الكبير بهجت أبو غربية. هذا المعلم عرّفنا على معظم أنحاء الوطن مشياً على الأقدام، أو على الدراجات الهوائية. ولم تفت حصة واحدة من حصصه من دون أن تأخذ "القضية" جزءاً منها. استشهد رحمه الله وهو يجهز إحدى العبوات الناسفة التي كان يمد بها رفاق السلاح في منطقة الخليل.

وأذكر عبد الله الريماوي وأحمد السبع، وكانا يومئذ صديقين متلازمين، ويشتركان في الأفكار القومية نفسها قبل انتمائهما في النهاية إلى حزب البعث العربي. الاثنان من خريجي الجامعة الأميركية في بيروت، وتخصصهما بالرياضيات والفيزياء. ولا شك في أنهما ساهما في تشكيل شخصياتنا وكثير من قناعاتنا السياسية.

كما أذكر زهدي جار الله، وكان صاحب أسلوب نقدي في تدريس التاريخ، وله كتاب مرجع عن "المعتزلة" تعتز به المكتبة العربية. الأستاذ جار الله من عائلة منافسة للمفتي الحاج أمين الحسيني، وكان يعتقد أن قريبه الشيخ حسام الدين جار الله كان أولى بمنصب الإفتاء؛ فوفقاً للقانون العثماني كان المتصرف التركي –الذي حل مكانه المندوب السامي البريطاني– يعين أحد الفائزين الثلاثة الأوائل مفتياً للقدس، وفي سنة ١٩٢١ كان هؤلاء هم الشيخ خليل الخالدي، والشيخ موسى البديري، والشيخ حسام الدين

جار الله، وأمّا الحاج أمين فكان ترتيبه الرابع؛ لذلك لمّا انسحب جار الله حل مكانه الحاج أمين، فبادر المندوب السامي إلى تعيينه. نحن لم تكن تعجبنا مواقف المعلم زهدي جار الله كلها، لكنه كان يثير فضولنا ويزرع الشكوك في نفوسنا قبل التسليم بأية مقولة أو شائعة.

ولا أنسى حسن الدباغ، ابن المناضل علي الدباغ، رجل المفتي في يافا. فضل الدباغ علينا كان أكاديمياً وخلقياً، وكان همّه أن يصنع منا رجالاً أكفاء ومميزين. كان أكثر من غيره اهتماماً بالمستقبل وبالتخطيط المسبق، ويرى أنه ربما كان في البلاد ما يكفي من المقاتلين، لكن المؤكد أنها بحاجة ماسة إلى آلاف المتعلمين وأصحاب الاختصاص. وأعتذر عن عدم ذكر جميع هؤلاء المربين المميزين، وكلهم جدير بالتحية والتقدير.

أمّا إدارة "العامرية" في عهدنا، ما بين سنة ١٩٤٤ وسنة ١٩٤٨، فقد عرفت اثنين: الأول هو الأستاذ علي شعث الصارم المتزمت في صرامته، وهو فلسطيني من غزة؛ والثاني الأستاذ عبد اللطيف الحبال، اللبناني البيروتي، الذي كان شخصية غير تقليدية يصرف معظم وقته في "منجرة" المدرسة أو في ملاعبها، لابساً "أوفرهول" وكأنه أحد العمال لا مدير المدرسة. من خلال سلوكه ولهجته تعرّف كثيرون منا على لبنان وطبيعته وأهله.

(٥)

إلى جانب "العامرية" كمرجع وطني سياسي، كان لنا في يافا عدد من الأندية الرياضية والاجتماعية والثقافية. ومن أبرز الأندية التي كانت تهتم بنشاطاتنا الوطنية، وتمدنا باللوجستيات اللازمة لهذه النشاطات، كان نادي الشبيبة الإسلامية. فهناك كنا نجتمع لنضع الخطط ونعد "اليافطات" والرايات والأعلام، ونجري اتصالاتنا الهاتفية بزملائنا من مسؤولي الطلبة في بقية المدارس لتنسيق المسيرات والاتفاق على الشعارات وغير ذلك. واللافت أنه على الرغم من كثرة الأحزاب في فلسطين، فإنه لم يكن لها مقارّ ثابتة خارج القدس، باستثناء الحزب الشيوعي، أو عصبة التحرر الوطني –فيما بعد– التي كان مركزها في يافا. كان رجالات العصبة معروفين بنضالهم الوطني العريق، من أمثال فؤاد نصار، وإميل توما، ورشدي شاهين، ومخلص عمرو، وغيرهم، يواظبون على إقامة الحلقات التثقيفية التي كنا نحرص على المشاركة فيها

وطرح الأسئلة وممارسة الحوار الديمقراطي بأبسط أشكاله. وكنا أحياناً نساهم في تسويق جريدتهم **الاتحاد** التي لا تزال تصدر حتى يومنا هذا، من مدينة حيفا، الشقيقة الحلوة ليافا.

في العام الدراسي ١٩٤٨/١٩٤٧ كنت وأبناء دفعتي في الصف الرابع الثانوي، آخر صفوف المرحلة الثانوية لاجتياز امتحان شهادة "المتريكوليشين" التي تؤهل حاملها لدخول العام الجامعي الأول، أو ما يعادل "السوفومور" في الجامعة الأميركية في بيروت.

ولم يكن اجتياز هذا الامتحان بالأمر السهل، ونسبة النجاح فيه محدودة –وهذا في الأيام العادية– ومن الطبيعي أن يصبح أكثر صعوبة خلال الأجواء المقلقة التي كانت تعم البلاد وتملأ سماءها بسحب سود تنذر ببوادر اضطرابات وحروب.

كثيرون منا حملوا السلاح بعد تدريب بدائي، والتحق كل واحد منا بالمسؤولين عن أمن الحي أو الشارع الذي يقيمون به ليحددوا له مواعيد نوبته في الحراسة والموقع المسؤول عنه. وكان معظم السلاح ذاتياً، أي ملكاً لمن يحمله، ومن النوع الخفيف مثل البندقية أو الرشاش سريع الطلقات. فكنت ترى مجموعة من خمسة أو ستة أشخاص يحملون تشكيلة قديمة ومتعددة الأنواع والمنشأ، منها العثماني، والإنكليزي، والفرنسي، والألماني، وحتى الإيطالي. أمّا الرشاش الشائع فكان ما يعرف بـ»ستن غن» الذي صنعناه محلياً، و»تومي غن» ذي المشط المدور. ومنا من غادر يافا والتحق بجيش الإنقاذ في دمشق، وبينهم من احترف الجندية وانخرط بعد النكبة في الجيش السوري، ممن أصبحوا فيما بعد نواة أول قيادة لجيش التحرير الفلسطيني.

المؤسف أننا لم نكن ندرك حينئذ أن شعبنا كان من دون قيادة، وأن من كنا نسمع بهم من مسؤولين كانوا في أحسن الأحوال عواجيز ما بيدهم حيلة. ولذلك شاعت وراجت قصة الشهيد البطل عبد القادر الحسيني عندما عاد من دمشق محبطاً لفشله في الحصول على ما كان يحتاج إليه مقاتلوه من سلاح في منطقة القدس، وكيف توجه إلى "القسطل" ليخوضها معركة محكومة سلفاً بموازين القوى، فاستردها لساعات، ثم سقط شهيداً وسقطت هي ضحية. كان ذلك في الثامن والتاسع من نيسان/أبريل المشؤوم سنة ١٩٤٨.

لا أريد أن أقسو على من كانوا مسؤولين عن يافا فيما يسمى "اللجنة القومية"، فمعظمهم كان من ذوي النية الطيبة والسمعة الوطنية، أمثال الحاج خالد الفرخ، وكامل الدجاني، وأحمد عبد الرحيم، والحاج أحمد أبو لبن، لكن كفاءاتهم وإمكاناتهم كانت محدودة، ومواردهم شحيحة. فلم يكن هناك من غرفة عمليات عسكرية، ولا من مكتب إعلامي أو ناطق سياسي. وكنا نعتمد على ما تقوله الصحف، ومعظمه لغو ومبالغات وخالٍ من أي تعبئة منظمة أو أي توجيه مدروس.

كنا نقرأ مثلاً أننا على موعد مع كتيبة من "جيش الإنقاذ" بعد يوم أو يومين، وفيها الآلاف من المتطوعين من شباب العرب المزودين بآليات ومدفعية، ويمر الموعد، لنكتشف أنه لم يصل أكثر من عشرين رجلاً بقيادة ضابط متحمس لكن بلا حول ولا قوة.

إن المرارة التي تغص بها نفسي وأنا أكشف بعض هذه المخازي، لن تمنعني من الإقرار كذلك بأن حكام العرب أمر، وشعوب العرب أمر آخر. وما من شعب عربي إلاّ وله مَنْ مثّله في دفع ضريبة الدم من أجل فلسطين. كما لن أغفل دور من جاؤوا باسم الإسلام من مختلف البلاد، وأخص بالذكر أبناء من كان يعرف بالشعب اليوغسلافي، وكلهم من مسلمي البوسنة. لقد شاهدت مجموعة من هؤلاء المجاهدين في الميدان قرب منزلنا في حي المنشية، وما زلت منبهراً بنضالهم البطولي وما تميزوا به من مهارة وشجاعة وإيمان برسالتهم. كانوا جنوداً محترفين، وبينهم من اختار البقاء في فلسطين، أو ما تبقى منها، بعد نهاية الحرب.

في المقابل، كان العدو من موقعه المتقدم علينا في كل المجالات يعرف دقائق واقعنا، ويعرف كيف يستفيد منه في شن حربه النفسية. وجاءت مذبحة "دير ياسين" والترويج "الانهزامي" لها فأدخلا الرعب في القلوب، وبدأت مدافع المورتر الصهيونية قصفها العشوائي والمتعمد على الأحياء السكنية، ليضاعف من الرعب والخوف من المذابح.

وعلى الرغم من فداحة الوضع فقد صمدت يافا حتى استنفد أبناؤها كل ما لديهم من إمكانات ووسائل للصمود والمقاومة. وما زلت أذكر اليوم الذي علت فيه زغاريد النساء وأناشيد الأولاد عندما نجح بعض العمال من "شركة السكب الفلسطينية" في صنع رادع محلي لمدافع المورتر

الصهيونية، أطلقوا عليه اسم "راجم الألغام"، وحملوه وطافوا به بشوارع المدينة لرفع معنويات الناس. لكن هذا الرادع لم ينجح وأودى بحياة أكثر من طاقم، فتوقف الشباب عن صنعه واستعماله.

ما من فلسطيني يتذكر الحوادث التي سجلت في يافا ومعظم مدن فلسطين وقراها في نيسان/أبريل ١٩٤٨، إلا ويعتصر الحزن قلبه. وكغيري كان لي نصيبي الوافر من هذا الحزن.

في هذا الشهر بالذات تفاقمت الأوضاع الأمنية والعسكرية والسياسية حتى وصلت إلى ذراها، وتضاعفت الضغوط والمشكلات الحياتية، وكان أهمها بالنسبة إلينا –طلاب شهادة "المتريكوليشين"– اجتياز هذا الامتحان الذي قدمت الحكومة موعده من حزيران/يونيو إلى هذا الشهر، وذلك بعد أن أعلنت بريطانيا عزمها على إنهاء الانتداب والانسحاب من فلسطين في الخامس عشر من أيار/مايو ١٩٤٨.

وكأنه لم يكن يكفيني ما كنت فيه، فقد أراد القدر أن يمتحن صبري وقوة احتمالي عندما فوجئت ظهيرة الثاني من هذا الشهر باستشهاد شقيقي ومثلي الأعلى "جمال"، الذي كان أصبح في الرابعة والعشرين من عمره. لم أصدق الخبر أول وهلة، على الرغم من أننا جميعاً في العائلة كنا على دراية بدوره المهم في حركة المقاومة، إذ كان رئيساً لسرية متخصصة بإقامة الكمائن وزرع العبوات والألغام على الطرقات الموصلة إلى المستعمرات الصهيونية في دائرة يتجاوز شعاعها ثلاثين كيلومتراً. ولطالما تعرض لهجمات مضادة فدُمرت سيارته أكثر من مرة، وأصيب بجروح. وكان قائد هذه السرايا ضابطاً سودانياً عرف باسم "طارق" الإفريقي.

لن أنسى في تلك اللحظات التفاف رفاق صفي من حولي، وفي طليعتهم صديق العمر إبراهيم أبو لغد، وإصرارهم على مؤاساتي وضرورة متابعة دراستي، وكنا قد بدأنا دورة الامتحان–المنعطف.

في اليوم التالي لاستشهاد "جمال" كان موعدنا مع امتحان اللغة العربية، وذلك في إحدى قاعات مدرسة "الفرير" المطلة على شارع العجمي. وكان كبير المراقبين في القاعة عمي الأستاذ الشاعر محمود الحوت، وكان مفتشاً في دائرة المعارف، وتساعده في المراقبة الآنسة فيوليت ناصر التي أصبحت، فيما بعد، حرم الصديق كامل قسطندي.

فتحتُ ورقة الفحص فوجدت أن علينا أن نختار عنواناً من ثلاثة عناوين ونكتب عنه موضوع إنشاء. من هذه العناوين واحد نصه: "اكتب عن حادثة هزت مشاعرك". وكدت لا أصدق نفسي وأحسست كأن الموضوع اختير خصيصاً من أجلي. نظرت إلى عمي فوجدته قد اختبأ مني وراء نظارة سوداء. أمّا العزيزة فيوليت فلم تستطع منع دمعها ورفعت منديلها مشيحة بوجهها كي لا أراها تبكي. أمّا أنا، وكان مقعدي قرب النافذة المطلة على الشارع، فكنت سارحاً كالمذهول أتأمل النعش الملفوف بعلم فلسطين والمحمول على الأكف الغاضبة التي طغت صرخات أصحابها على اللحن الحزين الذي كانت تؤديه إحدى الفرق الكشفية.

بعد أن كتبت ما كتبت مما امتزج مداده بالدموع، هرعت ورفاقي، وإبراهيم أبو لغد في المقدمة، لوداع الفقيد الذي دفن في تراب تلك الرابية الحمراء المطلة على شاطئ المتوسط. ومن سخريات القدر، أو ربما من مداعباته أحياناً، أن هذه المقبرة التي أقفلها العدو فباتت شبه مهجورة، عادت سنة ٢٠٠١ ففتحت أبوابها استثنائياً بضغط جماهيري لتستقبل فلسطينياً من يافا أبى أن يدفن خارج وطنه بعد غيابه القسري عنه نحو خمسين عاماً؛ هذا العاشق ليافا هو الحبيب، رفيق الطفولة والصبا والشيخوخة إبراهيم أبو لغد نفسه.

(٦)

وفي الثالث والعشرين من الشهر نفسه، نيسان/أبريل ١٩٤٨، وجدت نفسي على ظهر سفينة يونانية تسمى "دولوريس" متوجهة من يافا إلى بيروت.

اخترت ركناً على متن السفينة في مقدمها، ورحت أحدث نفسي كالمجنون متسائلاً عما حدث لنا ولماذا حدث، وإن كان لهذه الرحلة من عودة أم أنه الوداع الأخير؟

مستحيل! مستحيل أن يكون ذلك وداعاً ليافا! فالقصة لا تعدو أن تكون إجازة قصيرة، أو استراحة محارب عائد بعد أيام لن تصل إلى أسابيع. لو لم يكن الأمر كذلك لما أصر والدي على أن تكون مغادرتنا مكتملة لشروط الشرعية، وأولها الاستحصال على سمة دخول لنا من القنصلية اللبنانية بتوقيع من القنصل وصديق العائلة إدمون روك. ولو لم يكن الأمر كذلك لما خلفنا وراءنا كل شباب العائلة القادرين على القتال من إخوتي وأبناء عمومتي، وأمثالهم ممن كانوا في أعمارهم.

لا بد أننا عائدون ... أسبوعان أو ثلاثة على أكثر تقدير ونعود. عائدون لا شك عائدون ... وبيروت لم تكن غريبة عني ولم أكن غريباً عنها، ولطالما زرنا أهلنا فيها وأمضينا فصل الصيف في جبال لبنان، لنعود في النهاية إلى يافا محملين بحلويات البحصلي والصمدي من بيروت، وبماء الزهر والورد من صيدا، ثم نودع لبنان في الخيزران، المحطة التي يتوقف فيها الفلسطينيون عند زيارتهم لبنان أو مغادرتهم له عبر رأس الناقورة.

لا بد أننا عائدون ... وسنجد يافا في استقبالنا عند مدخلها قرب نبع الماء المعروف بـ "سبيل أبو نبوت"، المحاط ببساتين البرتقال على مد النظر.

هذه المرة تبدو الأمور مختلفة، وبشكل مأساوي، بقيت عيناي مسمرتين على يافا وميناءها التاريخي، والباخرة تشدني بعيداً عنها إلى عرض البحر من دون أي رحمة أو تعاطف.

مع مغيب شمس الثالث والعشرين من نيسان/أبريل ١٩٤٨، كانت يافا قد غابت عن ناظري، والبحر يحيط بنا من كل جانب.

غير أن البصيرة أقوى من البصر، والقلب أكثر حناناً من العين. وما كنت لأقول هذا القول لولا كل هذا العمر، ولا تزال يافا ملء نفسي وذاكرتي. وما من مرة ألتقي فيها واحداً من أصدقائي القدامى، حتى نبادر إلى سباق في الذاكرة عن اسم هذا الشارع، أو ذلك الزاروب ... من كان يسكن في هذا الحي، وفي أي ركن يقع ذلك المطعم أو ذلك المنتدى ... وما أكثر ما كنا نصاب بالدهشة عندما نكتشف أننا لا نزال نتذكر من معالم المدينة ما كان لا يهمنا أو يثير اهتمامنا يوم كنا نقيم في المدينة الحبيبة، مثل لون بناية بالذات، أو اسم بائع متجول لـ"النمورة"، أو تخشيبة بائع بطيخ.

وفي تفسير ذلك كتبت مرة، في مقدمة لكتاب **رجال من فلسطين** لمؤلفه العلامة عجاج نويهض، ما يلي:

– قد يكون في استطاعة القوة الغاشمة الجائرة أن تغتصب "الأرض" وأن تغتال "الأفراد" وأن تبيد "الجيوش والمؤسسات"، لكنه يستحيل عليها، مهما طغى جبروتها، أن تغتصب "الوطن" وأن تغتال "الشعب" أو أن تبيد "الأمة وشخصيتها الوطنية". وقد يكون في استطاعتها كذلك أن تزيف "كتاباً" أو أن تزور "خارطة" أو أن تنهب "أثراً" أو

أن تزيل "علماً"، لكنه يستحيل عليها، مهما تمادت في غيها، أن تزيف "التاريخ"، أو أن تزور "الجغرافيا" أو أن تطمس "التراث".

– فعندما تعجز "الأرض" تحت ظروف القهر والاحتلال والاغتصاب، عن أداء مهمتها كوعاء لـ"الوطن" يحتضن آثاره وقيمه ويشهد على هويته وتاريخه، يتلقف "المواطن" هذه المهمة ويصبح هو الوعاء الحاضن الشاهد، وتصبح "الذاكرة" بديل "الأرض"، وما من قوة بقادرة على قهر الذاكرة أو دحر الوجدان. والذاكرة بطبعها عدوة للقهر.

وكتبت:

– ولو سألتني، قبل اغتصاب "الأرض" في فلسطين، عن ذلك الشارع في يافا، الموصل بين بيتي ومدرستي، والذي قطعته ذهاباً وإياباً آلاف المرات، لوجدتني أوجز أيما إيجاز، غافلاً عن الكثير من التفاصيل. ولكن، حاول أن تجربني الآن، من الذاكرة التي تتحدى القهر وعشرات من السنين، لتسمع مني عجباً.

(٧)

ولا بأس في أن نستعيد اليوم ذلك المشوار:

لم يكن في "شارع العالم" حيث كنت أسكن، محطات لـ"الباصات"، وكان الشارع حكراً على "الدلجنصات" أو الكروسات بسبب ضيقه. لذلك، كان علي السير على الأقدام غرباً لأصل إلى الشارع الموازي، "شارع حسن بك" الذي كان يفاخر أصدقاؤنا من سكانه علينا لمرور الباصات فيه. وحسن بك هو شخصية حلبية اشتهرت في المدينة بعد أن أقام فيها مسجداً عرف باسمه. وهو لا يزال قائماً حتى اليوم متحدياً عشرات المحاولات لهدمه. كان مسجداً رحباً، تحيط به الحدائق من كل جانب، وتظلله عرايش العنب المعربشة على جدرانه.

محطة الباص رقم "٢" قرب المسجد، وهناك كنا ننتظر الباص الآتي إلينا من محطته النهائية عند أبواب "تل أبيب"، والمتجه جنوباً إلى وسط المدينة، إلى ساحة "الساعة" التي تشبه ساحة "التل" في طرابلس الشام، ونبدأ المشوار في "الباص رقم ٢".

أول محطة عند "التلة الحمراء" أو "تلة بيدس" نسبة إلى أسرة بيدس الثرية، التي أقامت فوقها قصراً منيفاً يشبه القلاع البريطانية القديمة.

فإلى هذه التلة، لا بد من عودة بعد انتهاء الدروس، لنلعب "الفوتبول" على طرفها الغربي وفوق ترابها الأحمر المتصل برمال الشاطئ الفضي. ومن يدري، فقد نغطس، بعد المباراة، في زرقة مياه البحر بعد أن نرمي ثيابنا على الشاطئ المباح للجميع.

ويمضي بنا الباص الحبيب صاحب الرقم "٢" في الشارع الرحب، حتى يصل إلى "نقطة بوليس المنشية" وداخلها "الضابط عبد الله"، القصير القامة غير المحبوب، باعتباره ممثل السلطة، ويتباهى في مشيته في الشوارع بصحبة الجنود الإنكليز. ما أكثر ما "أسقطنا" الضابط عبد الله في هتافاتنا خلال التظاهرات! بعد نقطة البوليس، ينتهي "حي المنشية" ويبدأ "حي ارشيد" فينعطف الباص عن هذا الحي لاستحالة المرور بزواريبه العتيقة الضيقة، ليسلك طريق "المحطة" بعد أن يمر بـ"فرن خلف" (أقرباء "أبو إياد" صلاح خلف)، فينعطف مرة ثانية من قرب ملحمة "الضعيفي" التي كانت رائحة الشواء تفوح منها باستمرار ويسيل لها اللعاب. وكانت طريق "المحطة" تعج بالمتاجر والمقاهي. و"الانشراح" أهم المقاهي وأشرحها. من زبائن المقهى الدائمين، الذي كنا نراهن بعضنا البعض –ونحن في الباص– حول وجوده أو عدم وجوده لحظة مرورنا، هو الشيخ عيسى أبو الجبين، الذي يقال –على ذمة الرواة– أنه كان من دعاة مقاطعة المساهمة في شركة "روتنبرغ" للكهرباء، ما أدى إلى احتكارها من قبل اليهود!

ومن طرائف طريق "المحطة" التقاء عربات "الدلنجص" بالباصات، وكم من سائق باص كان في السابق "عربجياً" فنجده يمد رأسه من النافذة باعتزاز ليقذف زملاءه السابقين بنكتة لاذعة يضحك منها الجميع. وكنت أتعاطف مع العربات وأصحابها، يؤنسني صوت أجراسها، ووقع أقدام الخيل، وحتى صوت الكرباج وهو يلعلع حاثاً الحصان على السرعة، أو مهدداً طفلاً شقياً "تشعلق" على قفا العربة.

ونترك "محطة سكة الحديد" عن يسارنا، ونواصل السير لنتجه إلى شارع "إسكندر عوض".

ولا أعرف من هو "إسكندر عوض" هذا، الذي يحمل هذا الشارع التجاري الأنيق اسمه. لكني أعرف أن يافا كان فيها عدد كبير من كبار العائلات المسيحية في فلسطين من أمثال: عائلة خياط، وعائلة حمصي، وعائلة روك، وعائلة البارودي، وعائلة غرغور، وعائلة أندراوس، وغيرها وغيرها. وكان معظمها يقيم في "حي العجمي" حيث أعرق وأحلى الكنائس ومن كل الطوائف.

وعلى قدمه، فإن "شارع إسكندر عوض" كان من أحلى شوارع يافا، في متاجره وواجهاته، وتنوع المحلات التي فيه. وكانت الطبقات التي تعلو المتاجر مكاتب للمحامين، أو عيادات أطباء.

ويصب هذا الشارع في "ساحة الساعة"، أقدم ساحات يافا وأكثرها عراقة. كانت "الساعة" ببرجها العالي في منتصف الساحة، التي طالما شهدت التظاهرات الصاخبة عندما نلتقي بجموع المصلين الخارجين من "الجامع الكبير". ها هو "القشلاق" الرهيب المحاط بالأسلاك من كل جانب، والمطل على الميناء والبحر من الناحية الغربية، بينما بوابته في الناحية الشرقية تواجه الساحة الفسيحة. وأمام "القشلاق" يقوم مبنى "محكمة الصلح" الذي نسفه الإرهابيون الصهاينة سنة ١٩٤٧، واستشهد فيه عدد من خيرة شباب المدينة، منهم أستاذنا في الابتدائية زكي الدرهلي الذي سبقت الإشارة إليه. وعلى امتداد مبنى المحكمة جنوباً، مجموعة متاجر ودكاكين ومطعم لأشهى طبق فول مدمس، هو مطعم "فتح الله". كان "فتح الله" فناناً لا "فوالاً"، والويل لك إن أبديت ملاحظة فيما يتعلق بالطبق الذي يقدمه لك. من يدخل مطعمه عليه أن يأكل على ذوق المعلم وإلا "فمع ألف سلامة"!

وراء هذه الواجهة، كان يقع "سور الدير" حيث تجارة الحبوب والغلال أو ما هو معروف بـ"مال القبان". وهناك كان تجار يافا المشهورون من أمثال: "بيبي"، و"الأبيض"، و"تماري"، و"حبش وكركر"، و"الهاها"، و"القدسي"، وغيرهم.

ولا يمكن الحديث عن "ساحة الساعة" من دون الحديث عما وراءها من الناحية الغربية، حيث بداية الطريق إلى ميناء يافا التي أصبح "برتقالها" أي المصدر من مينائها، أشهر برتقال في العالم، ما أجبر (إسرائيل) التي

غيرت كل أسماء مدن وقرى فلسطين –بما في ذلك اسم يافا الذي أصبح "يافو"– على الإبقاء على الاسم العربي للبرتقال خشية أن يفقد سمعته التجارية الواسعة.

على ناصية الشارع الموصل إلى الميناء، يقع مقهى "المدفع"، والاسم منسوب إلى ذلك "المدفع التركي" الرابض أمامها وفوهته صوب البحر، ويستعمل في رمضان إشارة إلى وقت الغروب. ورواد المقهى الأساسيون هم بحارة يافا الأشاوس الذين لهم تاريخهم في النضال الوطني. وبالقرب من هذا المقهى "نادي الشبيبة الإسلامية" الذي أصبح ملتقى الشباب الوطني من طلبة ومثقفين، وأحد مراكز صنع القرار السياسي في المدينة، الذي قام بدور مهم في محاولة تنظيم المقاومة العربية سنة ١٩٤٨، فاستشهد عدد من أعضائه، وانضم البعض الآخر إلى "جيش الإنقاذ"، ومنهم من استمر في السلك العسكري حتى قيام منظمة التحرير الفلسطينية، مثل العميد محمد الشاعر الذي كان ملحقاً عسكرياً في مكتب المنظمة في لبنان، ثم أصبح ممثلاً للمنظمة في موسكو.

وكان بعض شباب مدرسة "العامرية" يترددون على هذا النادي ويفيدون من إمكاناته لنشاطاتهم الطالبية. فمن هناك تحركنا وأقمنا أول اتحاد لطلبة فلسطين، الذي كان للصديق الدكتور إبراهيم أبو لغد، أستاذ العلوم السياسية في جامعة نورث وسترن الأميركية، دور كبير في بنائه، وكنا من مساعديه في هذا المضمار. وإلى الجنوب من النادي تبدأ "هضبة الرميلة" حيث يافا العتيقة التاريخية. وعلى سفح تلك الهضبة، كانت توجد مطاعم "الكباب" اليافية الشهيرة، ومن أشهرها مطعم "الزراري" ومطعم "عبد الرحيم"، وبالقرب منها "حلويات حمودة" و"الشامي" أشهر محلات البوظة في ليالي رمضان المؤنسة.

والآن نترك منطقة الميناء لـ"آل البلطجي والقمبرجي" أصحاب التخصص التاريخي بعالم الموانئ، وهم من العائلتين نفسيهما المعروفتين في بيروت وفي مينائها بصورة خاصة، ونستأنف المشوار، في الباص "رقم ٢" نفسه، ولكن بعد دفع "قرش آخر"، باعتبار أنها رحلة جديدة.

يقطع الباص الساحة ويتجه يساراً ليدخل بداية "سوق الصلاحي"، أحد شوارع يافا التجارية الأخرى وملتقى تجار البرتقال وجميع العاملين في

هذه التجارة الكبرى من سماسرة يتمتعون بخبرة هائلة ومعلوماً لا حدود لها عن كل "بيارة" برتقال في فلسطين. وإلى تجار الورق والأخشاب والمسامير ... الخ. كل تجار البرتقال في يافا كانوا يبدأون يومهم بفنجان قهوة في مقهى "داوود" ذي الساحة الرحبة والأشجار الظليلة، وربما مع صحن فول من مطعم "الكلحة"، فهناك حول تلك الطاولة، مثلاً، تجد سعيد بيدس، ومحمد عبد الرحيم، وإبراهيم خليل الحوت، والحاج ديب حمدان، وأبو هاشم القدسي، وحمدان مرسي، وإبراهيم وزكي بركات، وعبد المحسن حجازي، ومحمد علي القطان، وغيرهم ... .

وعند نهاية هذه السوق، تبدأ سوق أخرى هي "سوق الخضار" ومعظم أركانها من أصل قروي، ومن غزة، التي كانت تربطها بيافا روابط تجارية متينة ... ويستمر الباص في طريقه حتى نصل إلى ساحة بلدية يافا بحديقتها الفاتنة. هنا ننزل من الباص، ونتابع المشوار مشياً على الأقدام صوب "العامرية" في "حي النزهة" الذي يستحق اسمه من كثرة أشجاره وخضرته وحدائقه. وساحة البلدية هي مدخل يافا إلى الشرق والجنوب معاً، وترى الباصات وافدة عليها من القدس وغزة وكل فلسطين، باستثناء حيفا التي كانت الطريق إليها تمر "بتل أبيب".

وفي مقهى البلدية أو "الحلواني" يجلس التجار وكبار الموظفين وأقطاب البلد إن جاز اعتماد مثل هذا التعبير، لأن يافا تختلف عن القدس وغزة ونابلس وعكا بافتقارها إلى "العائلات" بالمعنى الذي كان معروفاً في تلك المدن. ويافا فلسطينية أكثر منها "يافية"، وحتى يمكن القول إنها عربية بقدر ما هي فلسطينية، وذلك لكثرة ما فيها ممن هم من أصول عربية مختلفة. لم يكن في يافا "العائلات" ذات التأثير السياسي، أمثال "الحسيني" و"النشاشيبي" في القدس، أو من هم أمثال "الشكعة" و"المصري" و"طوقان" في نابلس، أو من هم أمثال "الشقيري" و"السعدي" في عكا، أو من أمثال "الشوا" و"بسيسو" و"الصوراني" و"أبو رمضان" في غزة. من عائلات يافا القديمة عرفت "آل البيطار" و"آل هيكل"، ويقال إن جذورهما تعود إلى مئات السنين. ولقد شهدت "ساحة البلدية" كذلك الحشود والتظاهرات الوطنية، ولاسيما عندما كانت تعقد المهرجانات العامة في قاعة "سينما الحمرا" القريبة منها. وكانت تلك السينما، وقتئذ، فريدة من نوعها

في الشرق الأوسط من حيث الضخامة والفخامة. وعلى ذكر البلدية وساحتها، فلقد عرفت رئاستها أربع شخصيات معروفة على التوالي: عاصم بك السعيد، وعمر البيطار، ثم شقيقه عبد الرؤوف، وآخر رئيس لها كان الدكتور يوسف هيكل، الذي كان أول من وصل إلى هذا المنصب عن طريق الانتخاب لا التعيين.

وإني لأذكر تلك الانتخابات، التي كانت مناسبة لإقامة المهرجانات الوطنية، حيث كان المرشحون يتسابقون إلى كسب ود الحاج أمين الحسيني الذي كان يقيم في مصر وقتئذ، والكل يدعي الوصل به. فلقد كانت كلمته ساحرة التأثير في الناس ولأسباب عائلية، ازداد اهتمامي بالانتخابات، إذ كان أحد أعمامي أحمد سليم الحوت من المرشحين فيها، من خلال قائمة ضمته مع موسى الكيالي، وعبد الرحمن السكسك، وسليم السعيد، والحاج مصطفى أبو غبن، وذلك في مقابل لائحة تزعمها الدكتور يوسف هيكل، وكان معه رباح أبو خضرا، وحسن خلقي الدجاني، ورشاد أبو الجبين، وخليل مقدادي، وأحمد أبو لبن. وقد انتهت الانتخابات بفوز كامل للدكتور يوسف هيكل وأركان قائمته. وقيل يومها على لسان المعارضين لهيكل إنه كان يستحيل نجاحه لو لم يسبق ذلك تعيينه رئيساً للبلدية. ومن المؤكد أن هيكل لم يكن من المحسوبين على المفتي، شأنه شان معظم رؤساء البلديات في فلسطين. وكان أول "دكتور" سمعت عنه ولا علاقة له بالطب.

في طريق عودتنا من المدرسة "العامرية" كنا نؤثر السير على الأقدام. شلل من الطلبة والطالبات، ولاسيما طالبات مدرسة "الزهراء"، توأم المدرسة "العامرية" وجارتها. كنا نعبر الشوارع مثل قوافل من زهر، نتحادث، نتسامر، وحديث الوطن يغلب في النهاية كل حديث.

أما نحن أبناء "حي المنشية"، فلقد كان علينا، بعد الوصول إلى ساحة البلدية، أن نستمر شمالاً في الشارع الجميل، شارع "الملك جورج"، أو شارع "جمال باشا سابقاً"، وكنا نسميه نحن "شارع النزهة"، معلنين تمردنا على الأتراك والإنكليز معاً. ويصل بنا المشوار إلى سينما الحمراء، وسينما فاروق، ومن بعدهما نصل إلى شارع متفرع إلى ملاعب البصة، حيث كانت تقام الاحتفالات الرياضية الموسمية، ومباريات كرة القدم، حيث تلتقي أندية فلسطين المختلفة. وكان "النادي الإسلامي" و"النادي الأرثوذكسي" أشهر فريقين في يافا. والمرات القليلة التي استضافت فيها هذه الملاعب أندية

يهودية مثل "المكابي" و"الهابوعيل" كانت تحتشد بآلاف المتفرجين. كذلك شهدت ملاعب البصة مهرجانات واستعراضات "حزب النجادة" برئاسة محمد نمر الهواري، الذي خلت له الساحة بغياب الحاج أمين الحسيني، حتى عاد جمال الحسيني من منفاه وأنشأ تنظيماً باسم "شباب الفتوة". وجرت محاولة لتوحيد التنظيمين شبه العسكريين قبل النكبة قليلاً، لكن المحاولة فشلت، ولم يثبت أيٌّ من التنظيمين أي وجود مؤثر خلال حرب ١٩٤٨.

وفي الشارع نفسه، لكن في الجهة المقابلة، كان يقع فندق "كونتنتال" الذي كان ملتقى الأدباء والشعراء، الذين كثر وجودهم في يافا بعد قيام "محطة الشرق الأدنى"، واختيار يافا مقراً لها. على شرفة "الكونتنتال" تعرفنا على وجوه عديدة من أدباء فلسطين والعرب، وبخاصة من مصر، أمثال توفيق الحكيم، والعقاد، والخميسي. ومن الفنانين كنا نشاهد أمير البزق محمد عبد الكريم، وصابر الصفح، وحليم الرومي، ويوسف رضوان، وعبد الوهاب، ويوسف وهبي، وبشارة واكيم، وكثيرين غيرهم، يتحلقون حول المقرئ الخفيف الظل الشيخ محمد فريد السنديوني. ومن شباب يافا، أهل الصحافة والكتابة والإذاعة كنا نرى رشاد البيبي، وشاعر الشباب محمود أفغاني، ومحمود الحوت، وكنعان أبو خضرا، وإبراهيم الشنطي، وشقيقه صادق، ومصطفى الطاهر، وصاحب اللسان السليط هاشم السبع صاحب جريدة **الصريح**. وكانت يافا عاصمة الصحافة العربية الفلسطينية بلا منازع، ففيها تصدر **الدفاع وفلسطين والصراط المستقيم والشعب والوحدة**. وكانت كلها، في مقياس تلك الأيام، من طليعة الصحف العربية، والثانية بعد صحف مصر.

ما زلنا على الطريق، وها هو الشيخ عبد القادر المظفر يجلس أمام عمارته الشاهقة، التي كان يشيع أنصار المفتي أنه بناها من أموال جمعها المظفر من الهند لنصرة فلسطين، والله أعلم. ما أعلمه أنا أن المظفر كان فحلاً من فحول المنابر، وإذا استلم "الميكروفون" لا يتركه. ونستمر في المشوار فنصل إلى مبنى دائرة البريد بحجارته البيض وردهاته الفسيحة التي تلمع من نظافتها. وأستأذن لحظة لأرى إن كان ثمة رسائل في ص. ب رقم ٤١٦. فذلك صندوق بريدنا الذي حمل إليّ ذات يوم "جواز السفر" رقم ٢١٢٠٢٣ حين كنت أحلم بالسفر إلى بريطانيا لدارسة القانون. وهو الجواز نفسه الذي أصر الضابط "الإسرائيلي" على مصادرته عندما دخل الغزاة بيروت الغربية.

أمام مبنى البريد، هناك "ملهى البوسطة" وهو أرقى من زميله "ملهى الظريفية" في ساحة "الساعة"، وكان يحيي لياليه فنانون وفنانات من مصر ولبنان. ها هو ملصق الفنانة الصاعدة يومئذ "سهام رفقي" وأغنيتها المشهورة "يا أم العباية". وهناك "مقهى البريستول". ونصل إلى المفترق، حيث تقاطع شارع "إسكندر عوض" بشارع "يافا–تل أبيب" بشارع "المحطة". وشرطي السير في منتصف التقاطع تحت خيمته المعدنية يوجه سير السيارات، والتقاطع رحب، يكاد يشكل ساحة، إلى جانب منها "سينما نبيل" لصاحبها علي المستقيم، وأمامها "سينما الرشيد"، وبينهما "شركة باصات القدس" التي كنت أشعر بعاطفة خاصة تجاهها، لأن أخي جمال كان يدرس في القدس ويركب باصاتها. كان يدرس في "النهضة"، الكلية التي أسسها خليل السكاكيني وإبراهيم شحادة الخوري، من كبار المربين في فلسطين، وكان يديرها لبيب غلمية من مرجعيون.

وينتهي بنا المشوار عند هذا الحد. فشارع "المحطة" تحدثنا عنه ونحن قادمون إلى المدرسة، وكذلك شارع "إسكندر عوض". أما شارع "يافا–تل أبيب"، فهو نقطة البداية في التشابك السكاني العربي–اليهودي، وكان مقر دائرة حاكم اللواء، ومقر الـ "سي. أي. دي"؛ أي دائرة المباحث الإجرامية، التي شهدت أروقتها عذاب المئات من الفلسطينيين المناضلين.

وبعد...

فلقد كانت تلك لقطات من الذاكرة، وليست كل الشريط، الذي لا يزال فيه مئات الصور والأسماء، التي أغفلتها عمداً، واقتصرت على بعضها مما له معنى من المعالم، ولاسيما لمن لا يعرف يافا، عروس فلسطين ولو "زعلت" مني حيفا.

ولو سئلت اليوم بعد مضي ما يزيد على خمسين عاماً على ذلك اليوم المشؤوم، يوم اقتُلِعْتُ من فلسطين، إن كنت ما زلت على يقيني من العودة، لما ترددت ثانية واحدة في قول "نعم".

فيافا، كرمز للوطن كله، لم تبارح وجداننا، وتوارثها الأبناء والأحفاد، ولم يعترف فلسطيني واحد في الشتات بأن ثمة بديلاً من الوطن المسلوب، كأرض وتراث وهوية. ومن يسأل طفلاً ولد في أي مخيم من مخيمات

الشتات، بما في ذلك المخيمات في الضفة والقطاع، عن مكان ولادته، فإنه يستذكر فوراً بلده أو قريته في فلسطين: أنا من يافا، أنا من حيفا، أنا من اللد، أنا من الرملة ... أنا سليل كل الأمم والحضارات التي توالت على العيش في فلسطين، ولاسيما آخر ألف وخمسمائة سنة من التاريخ.

أنا لست عائداً فحسب، بل فلسطين عائدة إليّ أيضاً. إنها مسألة وقت، مهما يَطُلْ الزمن.

غيب الموت القائد الكبير في وقت عصيب تعيشه قضيتنا وأمتنا، غير أن عزاءنا ما تركه لنا من أثر عبر كتاباته التي تعد سجلاً مهماً في التاريخ الفلسطيني المعاصر، فقد كان كاتباً مرموقاً، أوقف قلمه على النضال في سبيل انتصار مبادئه، وانتصار الحق الفلسطيني.

أخيراً لا بد من قولة حق تبقى للأجيال القادمة إن شفيق الحوت ليس رجلاً عادياً ... إننا بوداعه افتقدنا الأب والقائد الثائر ... نودع وفي العين دمعة، سنديانة عربية فلسطينية.

نعم، بوداع اليافاوي شفيق الحوت نودع ضميراً من ضمائرنا النبيلة، ورجلاً ترك أثراً في حياتنا ووعينا الفردي والجماعي.

المواقف السياسية لشفيق الحوت

عبد الرحمن الحاج إبراهيم

المواقف السياسية لشفيق الحوت

عبد الرحمن الحاج إبراهيم*

ولد شفيق الحوت في يافا الفلسطينية العام ١٩٣٢ كلبناني فلسطيني، وفيها ترعرع وأنهى دراسته الثانوية العام ١٩٤٨. وفي السنة نفسها التحق بالجامعة الأمريكية في بيروت. اعتقل وهو طالب بتهمة الشيوعية، وصدر مرسوم جمهوري بإبعاده عن لبنان. "كان الحل الوحيد لإبطال الحكم هو أن استرد جنسيتي اللبنانية، لكنني ذهلت عندما رفض والدي أن يفعل ذلك، متوهماً أن ذلك سيعني التنازل عن جنسيته الفلسطينية، وهو ما اضطرني إلى رفع دعوى قضائية لاسترداد هويتي اللبنانية".

وأمضى شفيق الحوت ثلاث سنوات في التعليم الثانوي في مدرسة المقاصد الإسلامية، ومنها انتقل للعمل مدرساً في الكويت حتى العام ١٩٥٨. ثم بدأت رحلته كصحافي العام ١٩٥٨ في مجلة "الحوادث" اللبنانية التي كان سليم اللوزي يرأس تحريرها. وتدرج فيها حتى صار مديراً للتحرير، وفي الحوادث وعبرها انفتحت أمام شفيق الحوت الطريق إلى لقاءات وحوارات مع الرئيس جمال عبد الناصر ورفاقه في قيادة الثورة في مصر. هذه اللقاءات والحوارات أثرت في شفيق الحوت "أبو الهادر" الذي آمن بأن الوحدة العربية هي الطريق إلى فلسطين. وكان كمعظم جليه، يرى في جمال عبد الناصر البطل العربي الذي طال انتظاره، والذي سيكون في وسعه تحقيق الأحلام بالوحدة والتقدم، مفرزاً بذلك الالتفاف الجماهيري الأسطوري من حوله، وهو

---

* أستاذ مساعد في دائرة العلوم السياسية في جامعة بيرزيت.

الذي ساهم في صياغة لاءات الخرطوم الثلاث بعد هزيمة الحرب العام ١٩٦٧ (لا صلح، لا تفاوض، لا اعتراف)، وقد تعززت لدي شفيق الحوت القناعة بضرورة العمل التنظيمي السياسي، وضرورة إعادة الروح إلى الشخصية الفلسطينية، فبادر مع مجموعة من أصدقائه بتأسيس "جبهة التحرير الفلسطينية" العام ١٩٦٣، كان من أركانها أحمد السعدي، وخالد اليشرطي، وعبد المحسن أبو منير، ونقولا الدر، وسميرة عزام، وإبراهيم أبو لغد، ورجائي بصيلة، وبهاء أبو لبن، وراجي صهيون، وسعيد بركة، وعبد القادر الضاهر وغيرهم.

وكان شفيق الحوت من مؤسسي منظمة التحرير الفلسطينية، وشارك في مؤتمرها التأسيسي الذي عقد في القدس في ٢٨ / ٥ / ١٩٦٤. وهو عضو في المجلس الوطني الفلسطيني منذ المؤتمر التأسيسي الأول، وأخيراً عضو في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية بين العامين ١٩٦٦ و١٩٦٨، وعاد مرة أخرى في العام ٩١ حتى استقال منها في أعقاب اتفاق أوسلو العام ١٩٩٣. وعين في أول اجتماع للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً ومديراً لمكتب المنظمة في بيروت–لبنان.

وقد شارك في كتابة خطاب ياسر عرفات الذي ألقاه في الأمم المتحدة في سنة ١٩٧٤، إلى جانب نبيل شعث، ووليد الخالدي، ومحمود درويش، وصلاح الدباغ، كما كان في عداد الوفد الذي رافق عرفات إلى مقر الأمم المتحدة في نيويورك.

وعين ناطقاً رسمياً باسم الوفد الفلسطيني إلى الأمم المتحدة خلال انعقاد دورات الجمعية العامة منذ العام ١٩٧٤ فصاعداً. وقد قام بجهد كبير على الصعيد الإعلامي في الولايات المتحدة الأمريكية، وبخاصة في الأعوام ١٩٧٨ و١٩٧٩، فألقى محاضرات في العديد من الجامعات البارزة مثل كولومبيا، وهارفارد، وبرنستون، وربطته علاقات وثيقة جداً بإدوارد سعيد، وهشام شرابي، وإبراهيم أبو لغد، ومحمود درويش، وإسماعيل شموط، وكثيرين غيرهم. وقد ربطت شفيق الحوت علاقات إنسانية طيبة بالزعيم الراحل ياسر عرفات، إلا أنه كان دائماً في صفوف المعارضة. صاحب الجملة الواضحة والرأي المستقيم في كل القضايا فكيف بقضيته الأولى– قضية فلسطين التي دافع عنها بكل السبل وعلى الأصعدة كافة، ولذلك انتقد قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وسياساتها المرتبطة

باتفاقية أوسلو، وعبر عن ذلك عندما كتب يقول "لأن القيادة الفلسطينية لا تملك إستراتيجية، ولأنه لا ديمقراطية فيها، ولأنها مرؤوسة بشخصية مُصرة على فرديتها، وصلنا إلى دهاليز الدبلوماسية السرية، فكان ما كان من توقيع على اتفاقية أوسلو بمضمونها السياسي المجحف ونتائجها المعروفة، وعلى الأثر استقلت ومحمود درويش. وأنا سعيد بهذا الموقف حتى لو كنت على خطأ. فقد كان ضرورياً أن يخرج فلسطيني على مستوى القيادة، ويتخذ موقفاً، ويصمد عند هذا الموقف، لأن –للأسف– كثيراً من مواقف القادة عندنا كانت تتغير وتتبدل مع الزمن، ما أفقدها المصداقية".

اتفاقية أوسلو تم التوقيع عليها، وهي حقيقة مادية. وأوسلو هي ثلاثون ألف شرطي وألفان ومائتان وخمسون مديراً عاماً. هل تصدقون أن السلطة الفلسطينية فيها ٢٢٥٠ مديراً عاماً؟ أي ما يعادل ضعفي عدد المديرين العامين في جمهورية الصين الشعبية. السلطة الفلسطينية أصبحت حقيقة على الأرض، لها شؤونها ولها مصالحها ولها شركاتها ولها ولها ... وطبعاً لها رئيسها الذي يصر على أنه رئيس، وهو يمارس وكأنه رئيس دولة مع أن هذا غير صحيح، وتسميتها بالأراضي المحررة، وهي غير ذلك، وهو نفسه لا يملك الحق في الخروج من قطاع غزة والضفة الغربية ودخولها دون إذن مسبق من الحكومة "الإسرائيلية". لا أريد أن أركز على موضوع أوسلو لأننا كتبنا فيه، وقلنا فيه الكثير. ماذا كان موقف المعارضة؟ اكتفت بالقول لا لأوسلو! لكنا في السلطة وفي المعارضة في أزمة، لأن الأداء السياسي للسلطة الفلسطينية هو أداء فاسد، وأداء سلبي، وأداء يهدد بالمزيد من التنازلات. بدأ الفساد قبل أن يبدأ البناء، وبدأ الانحلال والهرولة للأسف في الصف الفلسطيني نحو العدو الصهيوني بشكل لا يليق بتاريخ هذا الشعب الفلسطيني وتراثه، والذي ما زال مشرداً ومتابعاً طريق النضال من أجل تحقيق أهدافه الوطنية. وعلى الرغم من انتقاده ومعارضته الشديدة للقيادة ولاتفاقية أوسلو واستقالته من اللجنة التنفيذية، ومن منصبه كسفير لفلسطين في لبنان، فإنه ظل متمسكاً بمنظمة التحرير الفلسطينية وضرورة إصلاحها وإعادة بنائها كبيت الفلسطينيين الشرعي ووطنهم المعنوي. واستمر شفيق الحوت بالعمل السياسي كمستقل وتجنب منابر التنظيمات الفلسطينية قدر المستطاع، وبقي على مسافة واحدة منها تقريباً، فكان معتمداً كناطق باسم فلسطين في المناسبات الوطنية والقومية باعتباره "مستقلاً عن أي

تنظيم". كما تضاعفت كتاباته في الصحف اللبنانية والعربية والدوريات الفصلية، وبقي حتى اللحظات الأخيرة يكتب في الصحافة المكتوبة، ويشارك في الصحافة المرئية والإذاعة.

وختاماً آمن شفيق الحوت بالعودة، وانضم إلى منابر كثيرة تؤكد على حق العودة، ولعل ما كتبه في كتابه **بين الوطن والمنفى** ما يؤكد على تعلقه وإيمانه بذلك.

> "ولو سئلت اليوم بعد مضي خمسين عاماً على ذلك اليوم المشؤوم، يوم انتقلت من فلسطين، إن كنت ما زلت على يقيني من العودة، لما ترددت ثانية واحدة في قول "نعم"، فيافا كمركز للوطن كله، لم تبارح وجداننا، وتوارثها الأبناء والأجداد، ولم يعترف فلسطيني واحد في الشتات بأن ثمة بديلاً عن الوطن المسلوب، كأرض وتراث وهوية. ومن يسأل طفلاً ولد في أي مخيم من مخيمات الشتات، بما في ذلك المخيمات في الضفة والقطاع، عن مكان ولادته، فإنه يستذكر فوراً بلده أو قريته في فلسطين: أنا من يافا، أنا من حيفا، أنا من اللد، أنا من الرملة، أنا سليل كل الأمم والحضارات التي توالت على العيش في فلسطين، ولاسيما آخر ألف وخمسمائة سنة من التاريخ. أنا لست عائداً فحسب، بل فلسطين عائدة إليّ أيضاً، وإنها مسألة وقت، مهما يَطُل الزمن".

وفي الختام لا بد من التنويه إلى الدور الذي قام به المرحوم شفيق الحوت من موقعه كقومي عربي–تقدمي وكفلسطيني لبناني أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، وتنبيهه لقيادة الثورة الفلسطينية بعدم العبث بثوابت النظام الطائفي الخاص القائم في لبنان، وكذلك ما قام به من قيادة الواقع الفلسطيني في لبنان بعد خروج منظمة التحرير الفلسطينية منه العام ١٩٨٢، وذلك نظراً لعلاقاته الواسعة بمختلف أطياف الواقع السياسي اللبناني.

"إلى اللقاء يا أبا هادر"

عبد الرحيم ملوح

"إلى اللقاء يا أبا هادر"

عبد الرحيم ملوح*

لخص الشاعر ت. س. اليوت القضية بقوله: الشعراء السيئون يقترضون من الآخرين، أما الشعراء الجيدون فإنهم يسرقون الآخرين [بالإذن من د. فضل النقيب].

عاش أبو هادر حياته وهو يناضل من أجل استرداد ما سرقوه منه ومن شعبه من أرض ووطن، وتميز أبو هادر بأنه أفنى حياته من أجل هذا كله. ومن أجل تحقيق أهداف شعبه بالحرية والاستقلال والعودة.

وكما قال عنه الصحافي الكبير ورئيس صحيفة السفير البيروتية طلال سليمان، "كان شفيق الحوت مزيجاً من الفلسطيني واللبناني بهوية القومي للعربي– التقدمي. فجده "البيروتي" عاش في يافا وأصبح تاجراً لبرتقالها. وعومل فيها كأحد أبنائها حتى أصبح مختاراً لحي المنشية فيها.

يافا الذي قال عنها المؤرخ الفلسطيني المشهور مصطفى مراد الدباغ بأنها "واحة أفلتت من الجنة" وقال عن تاريخها: "إنها من القدم بحيث تبدو معظم عواصم العالم ومدنه كأنها أطفال أمامها".

ويقول شفيق الحوت:

> "لقد مررت بتجارب مؤلمة كثيرة في حياتي، شأني شأن أي إنسان عادي، المرض ومحاولة الاغتيال. نكسات مختلفة، لكن لم أعاني في

---

* نائب الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

حياتي وما زلت كما أعاني من تجربة الاقتلاع من الأرض، الاقتلاع من الوطن، تجريدك من هويتك الوطنية ومن أرضك التي كنت تمشي عليها، وأنت واثق أن ما من إنسان يستطيع أن يتمنن عليك بأنك مقيم خارج فضائك وخارج سمائك ... أعتقد أن من يفقد الأرض بالقوة، ويفقد الهوية كما حدث لشعب فلسطين يفقد جزءاً من إنسانيته في نظر الناس".

هذا ما يشعر به ويردده أبو هادر الفلسطيني–اللبناني–العربي عن اقتلاعه وتشريده من وطنه ومدينته الأثيرة على نفسه يافا. فجده لقب في يافا "بالبيروتي"، وعندما عاد إلى بيروت حصل على جنسيته اللبنانية، ودرس في الجامعة الأمريكية وتخرج منها. ولكنه وذويه عاش مرارة التهجير، وشعر بذلك كما جميع الفلسطينيين الذين هجروا من وطنهم وديارهم إلى أربع أرجاء الأرض.

فاهتمام أبي هادر بالعمل السياسي ودفاعه عن وطنه فلسطين بدأ مبكراً، وأكثر ما لفت نظري قوله أنه "شارك في إنشاء اتحاد طلاب في يافا، ثم تعمم هذا الاتحاد فأصبح اتحاداً عاماً لطلبة فلسطين". وأقول لفت نظري لأنني على الرغم من متابعتي التاريخية، كنت أعتقد أن اتحاد طلبة فلسطين أنشئ على أنقاض رابطة طلاب فلسطين في منتصف خمسينيات القرن الماضي. وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على الاهتمام المبكر للشاب شفيق بالعمل السياسي والنقابي. فاتحاد طلبة فلسطين، كما يعرف الجميع، شكل اللبنة الأساسية لثورتنا المعاصرة، وكان لقياداته دور فاعل فيها. ومن شدة تعلق أبي هادر بوطنه فلسطين، وبيافا عروس البحر قوله: "يافا تنتظرني، يافا الحبيبة بالانتظار، أنا الآن أخونها بزيارة بيروت وبمشاهدة أماكن أخرى". يقول هذا على الرغم من أنه ابن بيروت كذلك، وفيها أقاربه وأجداده، حتى أن أحد شوارعها سمي باسم عائلته "شارع الحوت"، هذا الوفاء للوطن وللهوية، ولمسقط الرأس، قلما نجد من يعبر عنه بأجمل من هذه العبارات.

إن شفيق لا يتحدث عن الوطن بلغة الأنا، بل بلغة نحن، يتحدث عن التهجير بلغة كل الفلسطينيين الذين عانوا وما زالوا من هذا، وإن بدأ بوالده إبراهيم الحوت، تاجر البرتقال، لينقل عنه عبارة لافته للانتباه، حيث يقول الوالد لأبنه شفيق "هل تشم رائحة زهر البرتقال؟ هذا ميعاد التزهير". ويستغرب الحوت حالة والده البعيد عن بيارته بيافا فيقول: "كنت أعلم

فيما مضى أن باستطاعة المرء أن يستعيد صورة مشاهد من الماضي، أما أن يستعيد رائحة الأشياء، فهذا ما لم أكن أعرفه!! عندئذ أدركت أكثر سر العلاقة بين الأرض والإنسان".

كل هذا جبل مع أبي هادر وفيه منذ البداية، فجند نفسه للدفاع عن فلسطين واسترداد حقوق شعبها. فأسس جبهة التحرير الفلسطينية – كتائب العودة، وساهم في تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية مع القائد الفلسطيني الراحل أحمد الشقيري، وأصبح عضواً في لجنتها التنفيذية منذ العام ١٩٦٦. وعمل مديراً لمكتب م.ت.ف في بيروت مدافعاً عن حقوق اللاجئين الفلسطينيين، وعمل مدرساً في الكويت لمدة عامين، ثم صحافياً في مجلة **الحوادث** اللبنانية الذي أرادها منشوراً ثورياً، كما قال عنه طلال سليمان. وعندما بدأ العمل الفدائي، لم يحمل البندقية، لكنه حمل قلمه دفاعاً عن فلسطين وشعبها، ووظف لغته الإنجليزية في التعريف دولياً بها وبمشروع شعبها الوطني، ويذكر أنه في العام ١٩٦٩ زار مع فريق تلفزيوني فرنسي قاعدة تدريب للفدائيين شرق عمان، وبعد الزيارة ذهب مع الفريق لمنزل أحد الفدائيين، وأثناء الزيارة سأل مسؤول الفريق سيدة البيت وهي كبيرة في السن، لماذا خرجتم من البلاد؟ قالت له: "لأننا تيّسنا يا خواجه! وتردد أبو هادر بالترجمة، فشعرت بذلك السيدة، فقالت لأبي هادر "قل له إللي قلتلك إياه، لأنه لو إحنا ما تركنا بلادنا ما جرى فينا اللي عم يجري الآن، ومرور كذا سنة على حياتنا في المخيمات أذلاء" ... وأضافت "لا تنسى يا أخ شفيق أنه إحنا مش بس ارتكبنا خطيئة الخروج واللجوء إلى خارج الديار، إحنا اتهمنا من بقي ورانا بأنه خائن وارتضى العيش في ظل الحكومة الإسرائيلية".

ما أقسى الحقيقة التي نطقت بها هذه السيدة لأبي هادر. وما أعظم الدرس الذي علمتنا إياه وعلمته لشعبنا. وشكراً لك أبا هادر – المغادر لأنك تذكرنا به.

تابع شفيق نضاله السياسي في صفوف م.ت.ف، مديراً لمكتبها في لبنان ولاعباً مهماً في التعريف في الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني على الصعيد الدولي، وبخاصة في الأمم المتحدة، هو وشاعرنا المبدع محمود درويش من كتب خطاب الرئيس الشهيد ياسر عرفات في الأمم المتحدة العام ١٩٧٤.

لم يكن أبو هادر منفذاً لسياسة فقط، بل كان طوال حياته مساهماً في رسم السياسة الفلسطينية، على الرغم من كونه فرداً لا يقود فصيلاً فدائياً، وأكثر ما أقلقه هو أحداث أيلول العام ١٩٧٠، وانتقال مركز قيادة م.ت.ف وفصائلها إلى لبنان. فإضافة إلى خسارة الأردن وما تمثل من مخزون شعبي نضالي ونطاق جغرافي، فقد كان قلقاً من عدم قدرة الثورة وقيادتها بفصائلها المتنوعة، على استخلاص التجربة ومعرفة كيفية التعامل مع الواقع اللبناني، ومن الغرق في الواقع الطائفي القائم في لبنان. فلبنان يصعب على طرف واحد من أبنائه أن يحكمه، وصيغة لبنان تحظى بحماية دولية استثنائية، وأي إخلال فيها سيؤدي إلى حرب أهلية، ستكون الثورة ولبنان أولى ضحاياها، وهذا سيشوه صورة الثورة الفلسطينية وسيضعفها أمام العدو الإسرائيلي. وعلى الرغم من رؤيته لاستفادة غالبية فصائل الثورة وفي المقدمة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من خبرة ما حدث في أيلول ١٩٧٠ في الأردن، وتركيزها على العلاقة مع الحركة الوطنية اللبنانية بقيادة الشهيد كمال جنبلاط، فإن الأمور اندفعت موضوعياً نحو الحرب الأهلية التي حذر منها، وحذر من انخراط الثورة الفلسطينية فيها. فدخلت سوريا كطرف ضد الثورة والحركة اللبنانية بدعوى حماية صيغة لبنان. فاستنزفت الحرب مقدرات لبنان وفلسطين وسوريا ودول عربية كبيرة لسنوات، في الصراع الدائر على أرض لبنان. ودفع الشهيد كمال جنبلاط ومعه الآلاف حياتهم ثمناً لهذه الحرب البشعة.

في هذه الحرب الأهلية والإقليمية الضروس على أرض لبنان، التي دمرت العديد من المخيمات والقرى، وأزهقت الأرواح، قام شفيق بدور رجل الإسعاف أو رجل الإطفاء السياسي. فلعب دور معروفاً في تقليص الخسائر من موقعه كمدير لمكتب منظمة التحرير في بيروت. فلم يمض وقت طويل حتى تمت استعادة علاقات م.ت.ف والحركة الوطنية مع سوريا، ولعب دوراً في هذا، وفي الاتفاق على تشكيل قوات الردع العربية. وفي هذه الفترة ذهب الرئيس السادات للقدس ولكامب ديفيد منفرداً، ما أحدث تغيراً كبيراً في الأوضاع السياسية، في لبنان خصوصاً، والمنطقة عموماً، وفرض اصطفافات سياسية جديدة في مواجهة الخطر السياسي الداهم على المنطقة. ولم تمض مدة طويلة بعد توقيع الرئيس السادات اتفاقية السلام المنفردة مع إسرائيل، حتى هاجم العراق إيران ودخل في حرب معها دامت ثماني سنوات، فاستغلت إسرائيل ومن ورائها أمريكا

هذا التمزق العربي [صلح بين مصر وإسرائيل ومقاطعة لمصر من دول الجامعة العربية، حرب بين العراق وإيران] لتجتاح لبنان وتحاصر بيروت، بهدف توجيه ضربة قاصمة لـ م.ت.ف وإخراجها من بيروت تحت عنوان "سلامة الجليل". وأعقب هذه الحرب التي دامت ٨٨ يوماً، خروج قوات الثورة وقيادتها من بيروت، وحدوث مجازر صبرا وشاتيلا فيها؟ ولعب أبو هادر دوراً مهماً في الدفاع عن اللاجئين الفلسطينيين، وتأمين متطلبات الحياة لهم مع إخوانه الآخرين، ومعهم الكثير من القادة والمثقفين اللبنانيين، وفي ترميم العلاقات الفلسطينية اللبنانية والفلسطينية السورية. ولم يغادر ميدان المسؤولية في هذه الظروف الصعبة، على الرغم من ملاحظاته على ما آلت عليه الأوضاع، لبنانياً وعربياً.

لم تقف الآلام عند هذه الحدود، فبعد عام تقريباً من اجتياح القوات الإسرائيلية لبنان واقترافها مجزرة صبرا وشاتيلا، والمجازر الأخرى التي حدثت في لبنان، وكما يقال لكل زلزال موجاته الارتدادية، وقع الانشقاق داخل "فتح"، وسحب نفسه على منظمة التحرير الفلسطينية، فعمل أبو هادر مع أخوة على رأسهم الراحل إبراهيم بكر على معالجة ما حدث دون جدوى. فقد رأى بمعالجة الوضع عاملاً وطنياً مهماً وفي مساندته وأخوته على ما يواجهه أهلنا في لبنان إثر الاجتياح الإسرائيلي وتداعياته. وكما الطفل الفرح عند حصوله على لعبة جديدة، استقبل عقد المجلس الوطني التوحيدي العام ١٩٨٧ والانتفاضة المجيدة بكل الترحاب، وأنسى نفسه أنه لعب دوراً في صنع هذا والوصول إليه، واعتبر استعادة الوحدة لمؤسسات وقوى م.ت.ف والانتفاضة المجيدة عنواناً لمرحلة جديدة في النضال التحرري الوطني والديمقراطي الفلسطيني. وانطلاقاً من هذا عاد لعضوية اللجنة التنفيذية في المنظمة العام ١٩٩١، مؤملاً النفس أنه بالاعتماد على انتفاضة الشعب الفلسطيني ونضاله، والتحرك السياسي عربياً ودولياً، يمكن تحقيق شيء لشعبنا الذي عانى الكثير ولا زال.

لقد عارض أبو هادر، اتفاقات أوسلو بقوة، لأنه رأى أنها لن تحقق ما يصبو له الشعب الفلسطيني من حرية واستقلال وعودة. وسجل عليها ملاحظات سياسية عديدة، ليصل في قراءته لها، إلى رفضها، واستقال من عضوية اللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف مع الشاعر المبدع محمود درويش، وتداعى مع عدد ممن اعترضوا على هذه الاتفاقات، وفي مقدمتهم عضوا اللجنة التنفيذية عبد الرحيم ملوح وتيسير خالد، اللذان جمدا عضويتهما

في اللجنة التنفيذية احتجاجاً عليها وعلى توقيعها، إلى سلسلة من اللقاءات برئاسة الراحل إبراهيم بكر، وبمشاركة آخرين. وثم إصدار عدد من المواقف الجماعية عن هذه اللقاءات.

ومنذ ذلك الوقت تفرغ أبو هادر للكتابة وإلى علاج صحته المعتلة، وإلى حد أقل لمتابعة أوضاع الفلسطينيين في لبنان. ومع أن تطورات التعامل مع اتفاقات أوسلو وما ترتب عنها لم تفاجئه كثيراً، لأنه قرأها مسبقاً، فقد آلمه كثيراً جداً الانقسام الداخلي في منتصف العام ٢٠٠٧، وتمنى أنه لم يعش ليشهده، ودعا إلى معالجة الانقسام بأسرع وقت ممكن، لأن استمراره مدمر لكل شيء، ولم يمض وقت طويل حتى غادرنا أبو هادر، تاركاً في أيدي أبناء شعبه أمانة ثمينة، هي النضال لتحقيق الأهداف الذي ناضل من أجلها وناضل أجداده من قبله من أجلها، والتذكر باستمرار الكبرياء الشخصي لأبي هادر، الذي رفض العودة بإذن من الاحتلال، وانضم بهذا إلى الراحل الكبير د. جورج حبش، مع أن زملاء له مثل الشاعر محمود درويش، وصديقه د. إبراهيم أبو لغد وعشرات الآلاف الآخرين، رأوا غير ذلك، واعتبروا أن العودة للوطن والنضال من فوق أرضه، مثل باقي ملايين الفلسطينيين، أجدى وأهم كثيراً ما دام ذلك ممكناً من النضال من الخارج. يبقى هذا الأمر نظرة اجتهادية، تتعلق من أي موقع يمكن للمرء أن يرى خدمة الشعب وقضيته ونضاله أكثر.

واليوم يا أبا هادر في ظل استشراء الاحتلال وتنكره لحقوق الشعب الفلسطيني الشرعية، الحقوق الذي كفلتها له الشرعية الدولية، واستيطانه للأرض، وضمه للقدس والأغوار، واعتباره الحرم الإبراهيمي ومسجد بلال وغيرها من الأماكن، تراثاً يهودياً، ودعم أمريكا له، وفي ظل الانقسام الفلسطيني الداخلي، الذي هو مصلحة إسرائيلية صافية، ما أحوج ما نكون لك ولأمثالك، واعتقد أنه لا يكفينا القول هؤلاء هم أسلافي. ولكن يجب القول هذا ما عمل من أجله هؤلاء.

إن الأهم يا أبا هادر هو التمسك بالحقوق والأهداف، وعدم الانكسار أمام الواقع الصعب. وهذا ما فعلته أنت وغيرك من المناضلين الكبار. هذا ما نعدك بالإمساك به فيما تبقى لنا من حياة.

إن ما نقوله ونكتبه اليوم هو بعض من الوفاء لك وللمناضلين أمثالك، وإن كان لا يعنيك كثيراً.

أبو هادر: الصوت الهادر كبحر يافا

قيس عبد الكريم (أبو ليلى)

أبو هادر: الصوت الهادر كبحر يافا

قيس عبد الكريم (أبو ليلى)*

أحسب أن أعز أمنيات شفيق الحوت، وهو على فراش الموت، كانت أن يجاور صديق عمره إبراهيم أبو لغد في مدفنه في يافا. بالنسبة له: يافا لم تكن فقط البداية، بل كانت اللوحة التي تختزل خطوطها صورة فلسطين، دائمة الحضور في الذاكرة، دائمة التوهج في الوجدان، محفورة تفاصليها الخلابة في المخيلة، ترافقه حيثما حل وأينما ارتحل.

أعوام قليلة فقط عاشها شفيق الحوت في يافا، ولكنها لم تبارح وجدانه حتى رحل وهو في أواخر السبعينات. ذلك أن يافا، التي من فرط عشقه لها يعلنها –بعد الاعتذار من حيفا– عروس فلسطين، لم تكن فقط المدينة مرتع الصبا، بل هي كانت "رمزاً للوطن كله"، رمزاً لفلسطين. وفلسطين كانت هي القضية.

لهذا، إذن، يتشبث شفيق الحوت، وهو سليل العائلة ذات الأصل البيروتي، بهويته الفلسطينية حتى بعد أن أجبرت عائلته، تحت وطأة إرهاب قذائف المورتر الصهيونية بقصفها العشوائي والمتعمد للأحياء السكنية، على مغادرة يافا، واللجوء مرة أخرى إلى بيروت التي لم تكن قد مرت سوى عشرات قليلة من السنين منذ أن هاجر جده منها ليستقر في يافا. إبراهيم الحوت، والد شفيق، رفض –على الرغم من ذلك– أن يستعيد جنسيته اللبنانية تمسكاً بحقه في العودة إلى يافا. كذلك شفيق نفسه الذي لم يفعل

---

* نائب الأمين العام للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين.

ذلك إلا مضطراً لإحباط قرار بإبعاده عن لبنان بسبب نشاطه السياسي، ولكنه ظل متشبثاً بانتمائه المصيري إلى فلسطين الذي بات محوراً لحياته ونشاطه طيلة سني عمره اللاحقة.

إنها –مرة أخرى– تلك الظاهرة التي من بين أبرز أعلامها عز الدين القسام السوري، وفوزي القاوقجي اللبناني، وطه الهاشمي العراقي، وألوف المقاتلين، من مختلف الأقطار العربية، الذين رووا ثرى فلسطين بدمائهم، الذين اختاروا بوعي الانتماء إليها لأنها هي القضية، هي بؤرة المواجهة مع المخطط الاستعماري الذي مزق جسد الأمة العربية وعطل نهضتها:

ولأن شفيق الحوت، اللبناني–الفلسطيني، أو الفلسطيني ذو الأصل اللبناني، هو نفسه تجسيد نموذجي لهذه الظاهرة، فلقد كان مرهف الوعي لأسبابها وأبعادها. لنستمع إليه يقول:

> "فلسطين التي تستأثر بموقع القلب في الجسم العربي، تدرك، ربما أكثر من أي وقت مضى، أن الدفاع عن موقعها والحيلولة دون شطبها مع شعبها من الوجود، إنما يتجاوزان الدفاع عن النفس إلى الدفاع عن الوطن العربي بأسره. كما تدرك في الوقت نفسه أن لا فلسطين بدون العرب، ولا عرب بدون فلسطين".

في بيروت انخرط شفيق الحوت –وهو يلج إلى عمر الوعي الشبابي– في نشاط سياسي وثقافي محموم، مطوراً ومؤدلجاً ما كان قد اختزنه من أيام يافا، مسرح طفولته وصباه، من إدراك حسي لحقائق الصراع، إدراك كونته مشاهد وتجارب عدة: الاقتحام الليلي لمنزل العائلة من قبل جنود الاحتلال وهو لا يزال بعد في السابعة، القنبلة اليدوية التي أخفتها في صدرها والدته رافضة بإصرار أن تخضع للتفتيش من قبل مجندات جيش الاحتلال، الغليان الفكري والنضالي الذي اتسمت به مرحلة الدراسة الثانوية في مدرسة العامرية، استشهاد شقيقه جمال مثله الأعلى الذي كان من أعمدة المقاومة في المنطقة، الضعف الشديد للحركة الوطنية بسبب انقسامها وافتقارها إلى إستراتيجية واضحة وقيادة فعالة، الجهل المطبق بواقع العدو والاستهتار بقدراته، الوعود الجوفاء التي أطلقتها الأنظمة العربية والخداع الذي مارسته وتواطؤها الضمني مع الأعداء، اللوحة القياموية التي ارتسمت في ذهنه عن يوم مغادرته يافا ومأساة سقوطها، المبالغات العنترية للساسة العرب وأجهزة إعلامهم، والفجوة الشاسعة بين الأقوال والأفعال:

"كنا نقرأ مثلاً أننا على موعد مع كتيبة من (جيش الإنقاذ)، فيها الآلاف من المتطوعين العرب المزودين بآليات ومدفعية. ويمر الموعد، لنكتشف أنه لم يصل أكثر من عشرين رجلاً بقيادة ضابط متحمس، ولكن بلا حول ولا قوة!".

حين تقرأ هذا تدرك سر السخرية اللاذعة وروح التهكم المفعمة بالمرارة، التي اتسمت بها رؤية شفيق الحوت وخطابه، وما كانت تعبر عنه من نزعة للتمرد والمشاكسة دخل بها أجواء بيروت التي كانت حينذاك "أشبه بمنتدى للحياة العربية عامة، وملتقى الأجيال السياسية المتصارعة". وهو بحدة بصيرته نفذ إلى أعماقها ليرى أنه: "كان هناك انقسام مزدوج غير منظور لكنه يتفاعل وينمو بسرعة. الانقسام الأول طبقي، مجسداً بما كان يسمى حزام البؤس حول العاصمة، والثاني سياسي يتعلق بالموقف العام من مسألة العروبة".

طالباً في الجامعة الأمريكية، ثم مدرساً في مواقع عدة، ثم كاتباً صحافياً في الحوادث وغيرها، كان من الطبيعي أن يجد شفيق الحوت نفسه في مواقع اليسار والعروبة معاً: ناشطاً مع الشيوعيين، ثم مؤيداً للناصرية. ولكن عمق انتمائه الفلسطيني من جهة، وإصراره على أن يقرن القول بالفعل من جهة أخرى، كلاهما قاده وهو في مقتبل الثلاثينيات من عمره إلى تأسيس جبهة التحرير الفلسطينية/ طريق العودة، التي شاركته في إطلاقها شخصيات أصبحت، في السنوات اللاحقة، أعلاماً متميزة في المجالين السياسي والثقافي من بينها خالد اليشرطي، وعبد المحسن أبو ميزر، وسميرة عزام، وإبراهيم أبو لغد، وأحمد صدقي الدجاني، وآخرون.

هذا التنظيم كان واحداً من عشرات التنظيمات التي كانت تتفتح كزهور الربيع في صفوف الشباب الفلسطيني في مختلف مواقع تواجده في أواخر الخمسينيات ومطلع الستينيات، تعبيراً عن يقظة وطنية عارمة تستشعر الحاجة إلى إحياء الشخصية الوطنية الفلسطينية المتميزة، وتجسيدها عبر إعادة بناء الحركة الوطنية الفلسطينية المستقلة، بعد أن ذابت لسنوات طويلة بعد النكبة في إطار الحركة القومية العربية الناهضة آنذاك.

تتويجاً لهذه اليقظة، جاء تشكيل منظمة التحرير الفلسطينية التي كان شفيق الحوت من بين أبرز مؤسسيها المشاركين في المؤتمر الأول الذي

عقده المجلس الوطني الفلسطيني في القدس في أيار ١٩٦٤، وأصبح بعد ذلك عضواً في لجنتها التنفيذية العام ١٩٦٦، حيث عين ممثلاً ومديراً لمكتب المنظمة في لبنان، ومن موقعه الجديد هذا، إلى جانب أحمد الشقيري في قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية الناهضة مجدداً، تفتحت مواهب شفيق الحوت، ووجدت المجال الرحب لتوظيفها في خدمة القضية التي لم يخمد نبضها في قلبه منذ يافا.

ومواهب شفيق الحوت كثيرة ومتعددة. فهو كاتب متمكن، نصه سلس وشيق، ومعانيه سهلة وعميقة في آن. وهو صحافي متمرس، مكنته ثقافته الواسعة من أن يحتل حيزاً متميزاً في الصحافة اللبنانية منذ أواخر الخمسينيات. وبرزت قدراته الصحافية جليةً حين وضع أمام امتحان ضمان استمرار **الحوادث** في غياب مؤسسها سليم اللوزي، وعمل –وحده تقريباً– على النهوض بالمجلة، جاعلاً منها إحدى أبرز الدوريات العربية التي رفعت راية العروبة، وحملت قضية مناهضة الاستعمار والانتصار لفلسطين والوحدة العربية.

وشفيق الحوت خطيب لامع. حضوره الطاغي على المنبر، وسلاسة أدائه المسرحي، وفوق كل شيء صوته الهادر العميق الغني، كلها جعلت منه أحد أبرز الخطباء العرب. [كلما تذكرت شفيق الحوت، يقفز إلى الذهن فوراً الجناس الذي يطابق بين صوته الهادر، وبين اللقب الذي اعتدنا أن نناديه به: أبو هادر. لعله تعمد اختيار هذه التسمية تعبيراً عن حنينه الدائم إلى هدير بحر يافا، وربما إجلالاً لهدير بحر بيروت المتماهي مع هدير حياتها السياسية والثقافية وهي تحتضن أبرز المناضلين والمثقفين العرب إلى جانب المقاومة الفلسطينية].

وشفيق الحوت مناضل باسل معطاء، لا حدود لتفانيه في خدمة القضية التي نذر لها حياته، ولا مثيل لشجاعته في مواجهة القمع والتصدي للمخاطر والتحديات. وهو تعرض أكثر من مرة للملاحقة والمطاردة ولمحاولات اغتيال عدة، ولكنها لم تنل من صموده ولم تضعف عزيمته وتمسكه بثوابته. ولعل أخطر امتحان لصلابته الكفاحية كان يوم أصر على البقاء في بيروت، بعد أن خرجت منها قيادة وقوات المقاومة الفلسطينية إثر ملحمة الصمود صيف ١٩٨٢، وفترة التشرد المضنية التي قضاها متخفياً من الغزاة الإسرائيليين الذين اجتاحوا المدينة خلافاً

لاتفاقيات وقف النار، والدور الذي لعبه في تكريس الحضور الفلسطيني والدفاع عن أبناء الشعب الفلسطيني الذين تعرضوا لأسوأ أشكال التنكيل والمجازر في تلك الأيام السوداء.

وشفيق الحوت رجل الدبلوماسية والسياسي المحنك الذي نهض، على مدى عقود، بدور حساس وشائك كممثل لمنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، ونجح، في أصعب الظروف وأكثرها تعقيداً، في الحفاظ على علاقة عمل متوازنة مع الدولة اللبنانية، وفي توظيف صلاته الوطيدة مع القوى السياسية اللبنانية بمختلف اتجاهاتها، مستثمراً الاحترام الذي كان يتمتع به لدى الجميع، بفعل مواقفه المتزنة الحساسة للخصوصية اللبنانية ولسيادة لبنان، من أجل حماية مصالح أبناء الشعب الفلسطيني في لبنان، وصون التمثيل الرسمي للمنظمة في هذا البلد على الرغم من الهزات العنيفة التي تعرضت لها، في فترات معينة، العلاقات الفلسطينية–اللبنانية.

حافظ شفيق الحوت، طيلة فترة عمله في المنظمة، على موقعه كشخصية مستقلة، بمعنى الامتناع عن الانتماء لأيٍ من فصائل الثورة. ولكن استقلاله التنظيمي لم يكن أبداً حياداً فكرياً أو سياسياً، بل كان ينطوي على تمسك صارم بالثوابت الوطنية، وعلى وضوح في الرؤية بنهج واقعي وطني حازم يأبى الانزلاق إلى مواقع الرفض العدمي، بقدر ما ينبذ روح التخاذل والانحدار إلى سياسات التفريط والتنازلات اللامبدئية.

لم يكن شفيق الحوت من الذين صاغوا البرنامج المرحلي، برنامج النقاط العشر الذي أقره المجلس الوطني في أيار ١٩٧٤. ولكنه تقبل هذا البرنامج، وتبناه، وعمل بتفان من أجل تطبيقه وإعلاء رايته. ولعل أول وأبرز الخطوات، في هذا السياق، مساهمته إلى جانب محمود درويش، ووليد الخالدي، ونبيل شعث، في صياغة الخطاب التاريخي الذي ألقاه الرئيس أبو عمار في الجمعية العامة للأمم المتحدة العام ١٩٧٤، وهو الرسالة التي أطلقت مضمون ذلك البرنامج إلى العالم، والتي على أساسها حققت منظمة التحرير أروع الإنجازات السياسية والدبلوماسية، وكسبت أوسع اعتراف عالمي بالشعب الفلسطيني وحقه في تقرير المصير والعودة.

ومنذ ذلك الحين، عين ناطقاً رسمياً باسم الوفد الفلسطيني إلى اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، وقام بجهد إعلامي وسياسي هائل من أجل

إيصال الرسالة الفلسطينية إلى الرأي العام الدولي، وبخاصة الأمريكي والأوروبي. وهو كان من المتحمسين لبرنامج السلام الفلسطيني الذي تبناه، مع إعلان الاستقلال، المجلس الوطني الفلسطيني العام ١٩٨٨، وعلى أساسه عاد إلى عضوية اللجنة التنفيذية العام ١٩٩١، وشارك في الإشراف على أول مفاوضات مباشرة فلسطينية–إسرائيلية كانت تجري في واشنطن في إطار العملية التي أطلقها مؤتمر مدريد.

ولكن الصدمة التي هزت شفيق الحوت حتى الأعماق كانت يوم تم إبرام اتفاق أوسلو، وتبادل ما سمي برسائل الاعتراف المتبادل بين ياسر عرفات واسحق رابين. هو رأى في هذه الخطوة خروجاً على برنامج الإجماع الوطني، وتهديداً بالانزلاق في طريق يقود إلى تآكل الثوابت الوطنية التي اعترفت بها قرارات الشرعية الدولية، وفي مقدمتها حق العودة. وهو يجد أن إبرام الاتفاق مؤشر على أن القيادة المتنفذة في م.ت.ف. خاضت العملية السياسية بأسلوب فوضوي وعشوائي "من دون إستراتيجية محددة أو أجندة سياسية تتضمن أولويات هذه العملية وآلياتها وتكتيكاتها". لم يكن أبو هادر ضد خيار السلام، ولكنه كان يرى أن التناول القيادي الفلسطيني لهذا الخيار لم يكن مؤسساً على قاعدة ثابتة وواضحة، بل عفوية وارتجالية دون أسس متينة وقوية.

وهو لذلك أصر على التعبير عن احتجاجه على الاتفاق بتقديم استقالته من اللجنة التنفيذية للمنظمة، هو ومحمود درويش وعدد من ممثلي الفصائل المعارضة للاتفاق، وبخاصة الديمقراطية والشعبية. مرة أخرى: الحرص المزمن على اقتران القول بالفعل. وها هو يبرر موقفه بالاستقالة بقوله: "كان ضرورياً أن يخرج فلسطيني على مستوى القيادة ويتخذ موقفاً، ويصمد عند هذا الموقف، لأن كثيراً من مواقف القادة عندنا –للأسف– كانت تتغير وتتبدل مع الزمن، ما أفقدها المصداقية".

لم يكن هذا التقييم لوضع القيادة الفلسطينية ابن ساعته لدى شفيق الحوت، بل هو كان دوماً في موقع النقد لبنية هذا الجسم القيادي وأسلوبه العشوائي في العمل. ووجد هذا الموقف تعبيراً عنه في العلاقة الفريدة التي كانت قائمة بينه وبين ياسر عرفات: "أكن له كل مشاعر الود والمحبة والصداقة، بقدر ما أحمل على العديد من تصرفاته وسلوكه كقائد مسؤول عن مصير شعب"... "اعترف أن الرجل دخل قلبي. لكن

عقلي كان لا يزال متردداً"! بهذه العبارات يصف شفيق الحوت التناقض الكامن في عواطفه إزاء القائد الراحل. فهو يبدي إعجاباً شديداً بقدراته العملية، وديناميكيته الفائقة، ومثابرته غير العادية، وهو يقدر الدور الذي قام به في بناء منظمة التحرير وتعزيز مكانتها العربية والدولية، ولكنه على الرغم من ذلك يأخذ عليه أسلوبه البراغماتي وافتقاره إلى رؤية إستراتيجية واضحة، وينتقد بحدة –بشكل خاص– فرديته الطاغية وأسلوبه في التفرد بالقرار: "كان توقيعه وحده هو المعتمد سواء لإبرام اتفاق مع دولة أو لشراء بطانيات للجنود!".

استقالة شفيق الحوت من اللجنة التنفيذية للمنظمة، احتجاجاً على اتفاق أوسلو، لم تكن نهاية المسيرة النضالية لهذا القائد العملاق، بل هي كانت بداية مرحلة جديدة منها لم تكن أقل حيوية ونشاطاً في مختلف مجالات العمل السياسي والإعلامي والثقافي، تركز اهتمامه خلالها على استنهاض وتعبئة وتنظيم حركة اللاجئين وفلسطينيي الشتات وتأطير نضالهم من أجل الدفاع عن حق العودة، وبخاصة أنه كان يستشعر خطورة التهميش الذي بات يتعرض له دور الشتات، في أعقاب المرحلة التي تلت اتفاقات أوسلو، كما كان يتخوف من المخاطر التي تنطوي عليها العملية التفاوضية، بصيغتها القائمة، وانعكاساتها على حقوق اللاجئين، وبخاصة حق العودة. وهو لذلك كان من الموقعين على إعلان حق العودة العام ٢٠٠٠، وأصبح عضواً في اللجنة التأسيسية لمؤتمر حق العودة الذي انعقد في لندن العام ٢٠٠٣.

ولكنه، في توجهه الجديد هذا، بقي دوماً مرهف الحساسية وشديد الحذر إزاء المحاولات التي لجأت إليها بعض الأطراف لجر هذه الحركة نحو مزالق اصطناع البدائل لمنظمة التحرير الفلسطينية، و/أو لتوظيفها لصالح حسابات وتحالفات إقليمية ومحاور عربية معينة. فهو ظل يتمسك بثبات بحرصه على استقلالية القرار الفلسطيني. وعلى الرغم من نقده اللاذع لما آلت إليه أوضاع المنظمة، في الفترة التي أعقبت اتفاق أوسلو، فقد رفض بحزم أي محاولة للتشكيك بمكانتها التمثيلية، أو إيجاد البدائل لها، وحرص دوماً على صون مكانتها بصفتها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، وبصفتها التعبير عن وحدة الشعب، والإطار الجامع لمكونات حركته الوطنية داخل الوطن وفي الشتات.

برحيله، بعد صراع مضنٍ مع المرض، في الرابع من آب ٢٠٠٩، فقد الشعب الفلسطيني، بل حركة التحرير الوطني العربية بأسرها، مناضلاً متفانياً صادقاً مع نفسه، متمسكاً بمبادئه، وقائداً شجاعاً يجمع بين الحكمة والاتزان، وبين روح التمرد والإصرار على إعلاء كلمة الحق، ومثقفاً كبيراً سوف تخلده دوماً آثاره وكتاباته الشيقة والعميقة والمتدفقة بالحيوية والعنفوان. وقبل كل شيء، فقدنا في أبي هادر صوتاً هادراً بالدفاع عن فلسطين، وعاشقاً متيماً بعروس البحر يافا.

عن الراحل الكبير شفيق الحوت
سيرة شخص وشعب وقضية

ماجد كيالي

عن الراحل الكبير شفيق الحوت
سيرة شخص وشعب وقضية

ماجد كيالي*

ليس التاريخ مجرد حركة أفراد، وإنما هو تعبير عن حركة مجتمعات، أو كتل اجتماعية كبيرة، على الرغم من الدور الكبير الذي لعبه بعض الأفراد في تاريخ المجتمعات البشرية، والأمثلة على ذلك كثيرة، وفي كل المراحل.

لكن الوضع في المجتمعات الفتية، أو تلك المجتمعات التي لم تنضج بعد (بالقياس لوعيها لذاتها ومصالحها)، يختلف كثيراً، حيث ثمة دور كبير للأفراد في صياغة تاريخ هذه المجتمعات، أو توجيه دفتها، بالنظر لحالة الغياب أو التهميش التي ترزح في ظلها تلك المجتمعات لأسباب مختلفة (ذاتية وموضوعية).

صعود الفئات الوسطى وأفولها

ومثلاً، ففي المجتمعات العربية، التي كانت في طور التبلور، وفي بداية تعرّفها على هويتها الوطنية والعروبية، بعد خروجها من الحقبة العثمانية، اضطلعت الفئات الوسطى، التي كانت تقطن في المدن (في الثلثين الأولين من القرن العشرين)، بدور تاريخي كبير، على الرغم من كونها "أقلية" عددية في مجتمعاتها، حيث كانت الأكثرية تقطن في الأرياف.

---

* كاتب وباحث مقيم في دمشق.

وقد تبوأت تلك الفئات مكانتها القيادية في مجتمعاتها، بحكم تمركزها في المدن، التي كانت بمثابة مركز للحراك السياسي والثقافي والفني، وبفضل تمكنها من التعليم الحديث، بمختلف اختصاصاته، ما مكنها من احتلال المناصب الإدارية في الدولة الناشئة، وأيضاً، بحكم احتكاكها بتجربة الغرب في التحديث والحداثة وتحصيلها العلم في جامعاته.

وبسبب من مكانتها هذه، استطاعت الفئات الوسطى تصدير عديد من الشخصيات العامة، التي لعبت دوراً كبيراً في السياسة والثقافة والفكر والفنون (بمختلف تلاوينها)، وهذه الشخصيات هي التي شكلت الأحزاب السياسية، وهي التي أقامت عمارة الثقافة والفنون، في النصف الأول من القرن العشرين، وفي بداية مرحلة الاستقلال وازدهار الدولة الوطنية.

ومعلوم أن هذه المرحلة انتهت مع نشوء مرحلة الانقلابات العسكرية والأيديولوجية، التي أدت فيما أدت إليه إلى "ترييف" المدن (بدل تمدين الريف)، والتحول إلى الدولة الشمولية، وتآكل الفئات الوسطى المدينية، لصالح فئات وسطى جديدة (تعتمد على جهاز الدولة البيروقراطي والتسلطي)؛ ما "أفقر" الدولة والمجتمع في آن معاً، من الناحيتين المعنوية والمادية (بحكم إهدار الموارد وتغييب المؤسسات والوصاية على المجتمعات).

الفئات الوسطى الفلسطينية

وعلى الرغم من اختلاف الظروف، فإن الوضع الفلسطيني لم يخرج عن هذه القاعدة تماماً، ذلك أن حالة الانكسار والتشظي التي أصابت المجتمع الفلسطيني، بفعل النكبة (١٩٤٨) أدت إلى غياب الشعب الفلسطيني، وتغييبه. ووقتها انشغل غالبية اللاجئين الفلسطينيين بتحصيل لقمة عيشهم، بعد أن تحولوا بين يوم وليلة إلى حال من الفقر المدقع؛ بمعنى أنه لم يكن ثمة قدرة لديهم لإدراك واقعهم، كما لم يكن بمستطاعهم في هذه الحال من البؤس المادي والمعنوي التفكير بقضايا أخرى.

بالنظر إلى ذلك، فقد برز من بين الفئات الوسطى الفلسطينية، التي قطنت في العواصم والمدن العربية؛ أي في بيروت ودمشق والقاهرة وعمان وبغداد والكويت وقطر والرياض وغيرها، أساتذة جامعات، ومدرسون، وصحافيون، ومهندسون، وأطباء، ومحامون، وفنانون، ورجال مصارف.

هكذا، برز في تلك الفترة عديد من الشخصيات الفلسطينية، من بين صفوف الفئات الوسطى، التي لعبت دوراً كبيراً في الحياة السياسية والأدبية والفنية والأكاديمية العربية، وما ساعد على ذلك الاكتفاء المعيشي لهذه الفئات، وتمتعها بقدر مناسب من الثقافة والتعليم، واحتكاكها بالتجارب السياسية الناشئة؛ في حين كانت أغلبية اللاجئين الفلسطينيين مشغولة بتحصيل لقمة عيشها، وترميم وضعها.

ومن هذه الشخصيات، مثلا، شفيق الحوت، وأحمد الشقيري، ووليد الخالدي، وادوارد سعيد، وهشام شرابي، وأحمد صدقي الدجاني، وآل صايغ (فايز، ويوسف، وأنيس)، وأنيس القاسم، وإبراهيم أبو لغد، ونصير عاروري، وغسان كنفاني، وإسماعيل شموط، وسليم سحاب، وعبد المحسن القطان، وعبد المجيد شومان، ورفعت النمر (هذا دون أن ننسى الدور الذي لعبه المثقفون الفلسطينيون في مناطق ٤٨، وعلى رأسهم الشاعر الراحل محمود درويش)؛ وكل ذلك على سبيل المثال لا الحصر.

ويستنتج من ذلك أن الحركة الوطنية الفلسطينية لم تنطلق كفكرة وكمبادرة من فلسطينيي المخيمات، وذلك بحكم واقع البؤس (المادي والمعنوي) الذي كانت ترزح تحته، كما أنها لم تعتمد عليها في تأمين مواردها، وإن تحول فلسطينيو المخيمات إلى وقود لهذه الحركة فيما بعد، من دون أن يتمكنوا من تنسّم مواقع قيادية فيها.

هكذا اضطلعت تلك الشخصيات، كل واحدة بحسب ثقلها في الحقل الذي تعمل به، بدور كبير في صياغة الوطنية الفلسطينية المعاصرة، بمعناها المؤسساتي والهوياتي، وفي مسار السياسة الفلسطينية، ما مكن الشعب الفلسطيني من العودة من حال الغياب أو التغييب، والتمحور من حول ذاته، وبالتالي من حول قضيته.

وكما في الحال العربية، فإن هذا المسار (صعود الفئات الوسطى) الذي بدأ بالتبلور مع تشكيل منظمة التحرير ومؤسساتها تعثر، أو تحول، بعد ظهور الفصائل الفلسطينية، التي تنسمت خطابات ثورية، وانتهجت طريق الكفاح المسلح لتحقيق أهدافها، وشكل العسكرة لفرض سلطانها في مجتمعاتها.

هكذا، استطاعت هذه المنظمات إزاحة الفئات الوسطى الفلسطينية، والهيمنة على المجتمع، بفضل خطاباتها العاطفية، ومبادرتها لإطلاق

الكفاح المسلح، الذي داعب مخيلة الجماهير المسكونة بتحرير الوطن، وأيضاً بفضل تحولها إلى نوع من سلطة تقوم بتشغيل وإعالة قطاعات واسعة من المنتسبين أو المتعاطفين معها في المخيمات الفلسطينية الفقيرة، كما تقوم بأعمال مقاولة على النفوذ بينها وبين النظام العربي.

وكما حصل في البلدان العربية، فإن صعود الفئات الجديدة، إلى أعلى سلم القيادة والهيمنة، أدى إلى انحسار نفوذ الفئات الوسطى الفلسطينية، التي وقفت، مقيدة، تتفرج على ما يجري، ما أفقد الحركة الوطنية الفلسطينية أحد دعاماتها التكوينية؛ في وضع لا يوجد فيه مجال مستقل للحراك السياسي الطبيعي، وفي وضع باتت فيه السلطة على الرجال حكراً لمن يملك سلطة المال والسلاح والعلاقات السياسية الوظيفية؛ ما أدى إلى استبعاد أو تهميش دور شخصيات كبيرة بحجم الراحل شفيق الحوت. ولعل ذلك أحد مكامن العطب الأساسية في التجربة الوطنية الفلسطينية، كما في التجربة السياسية العربية المعاصرة!

السلطة والثقافة – علاقة مأزومة

على الصعيد الثقافي لم يكن الوضع أحسن حالاً، إذ أن علاقة الثقافة والمثقف بالسياسة وبالسلطة عند الفلسطينيين، لم تكن أفضل من مثيلاتها في البلدان العربية، بالنسبة لارتهانها لعلاقات القوة والهيمنة والسلطة، وللتحيّزات السياسية، والشعارات الجمعية. إضافة إلى ما تقدم، فإن هذه العلاقة كانت على درجة كبيرة من الهشاشة، بحكم حرمان المجتمعات الفلسطينية من الفضاء الثقافي الخاص بها، وغياب الحيّز الاجتماعي الموحّد لها، وخضوعها لفضاءات وسلطات ثقافية مختلفة ومتباينة، في مناطق اللجوء والشتات؛ إذا استثنينا حالة فلسطينيي ٤٨ (كردة فعل على محاولات التذويب والتغييب والإلحاق الإسرائيلية).

هكذا ليس للفلسطينيين صحيفة يومية جامعة، ولا إذاعة وقناة تلفزيونية ومكتبة ومعرض ومسرح، كما ولا مدرسة وجامعة (لا في السابق ولا الآن)؛ هذا على الرغم من صعود نجم عديد من الفلسطينيين، بغض النظر عن أماكن تواجدهم، في فضاءات الفكر والشعر والرواية والقصة والفن والمسرح والسينما والبحث والصحافة (كشفيق الحوت، وإدوارد سعيد، ومحمود درويش، ومعين بسيسو، وهشام شرابي، وغسان كنفاني،

وجبرا إبراهيم جبرا، ووليد الخالدي، ويوسف وأنيس صايغ، وسليم سحاب، وإسماعيل شموط، ومصطفى الحلاج، وحسين نازك، مثلاً).

والواقع أن هذه الكوكبة من الفلسطينيين قد صعدت بسبب مواهبها، وإبداعاتها، ومثابرتها على تحدي الواقع الذي ألمّ بشعبها، وعنادها في مواجهة عمليات الإنكار والتهميش، أي بمعزل عن وجود حالة ثقافية مؤسّسية، داعمة.

ومع نشوء حركة التحرر الوطني (أواسط الستينيات) نشأ حيز ثقافي خاص بالفلسطينيين (بالمعنى النسبي)، موازٍ للحيز السياسي "المستقل"، الذي نشأ و"اصطنع" مع وجود الفصائل الفلسطينية المسلحة، في بعض البلدان العربية، ولاسيما في لبنان.

لكن عملية تخليق هذا الفضاء الثقافي الخاص أحاطت بها مشكلات وسلبيات، أهمها: طغيان الطابع العاطفي/الشعاراتي/العسكري على الفصائل، على حساب طابعها العقلاني /السياسي/الجماهيري، وهيمنة العلاقات الأبوية والمزاجية فيها بدل العلاقات المؤسسية والديمقراطية، وسيادة نمط التعامل الفوقي مع المجتمع، وضعف المشاركة السياسية، وتفشي روح الوصاية الفصائلية على القضية والشعب. وفاقم ذلك سيطرة الاتجاه المحافظ في الساحة الفلسطينية الذي حدّ من إمكان تخليق ثقافة حداثية فيها؛ على الرغم من أنها كانت تعجّ بالشعارات والأيديولوجيات (الوطنية والقومية والدينية واليسارية)؛ بما هي شعارات وأيديولوجيات رغبوية وإرادوية لا نقاش فيها.

وفي الممارسة العملية، فقد استخفت الفصائل، التي تخضع لسلطة "الأبوات"، بالثقافة، وبالعاملين في حقلها (بأنواعه الفكرية والأدبية والبحثية والفنية)، وهي التي روّجت مقولات من نوع: "اللقاء في أرض المعركة"، و"زغرد بربك يا رصاص واخرس بربك يا قلم"! و"البرنامج السياسي ينبع من فوهة البندقية"! وكان للأبوات وقادة الأجهزة العسكرية والأمنية الدور المقرر في صياغة الساحة الفلسطينية بشعاراتها وبناها، وأشكال عملها، وحتى أن بعض هؤلاء باتوا مقررين بشؤونها الثقافية، أو ما يصلح لذلك وما لا يصلح؛ على حساب المثقفين والعاملين في مجال الفكر والبحث والدراسة في الساحة الفلسطينية!

وعلى الرغم من تمكن الفصائل، في مرحلة معينة، من استقطاب وإنتاج عدد كبير من المثقفين والباحثين والصحافيين والفنانين (كناجي علوش، ومنير شفيق، وداود تلحمي، وجميل هلال، ويحيى يخلف، ورشاد أبو شاور، وأحمد دحبور، وخالد أبو خالد، وحسن البطل، وبلال الحسن، و ماجد أبو شرار، ومنير شفيق، ونزيه أبو نضال، مثلاً)، بفضل الصحف والمجلات والكتب التي أصدرتها، فإنها لم تنجح بنسج علاقات تفاعلية وتداولية، وتوليدية معهم، فهذه العلاقة ظلت مشوبة بنوع من التوجس والاستخفاف، أو من الكره والحذر، في آن معاً.

وفي ظل هذه الأوضاع، تموضعت الثقافة والعاملون فيها ضمن قوالب معينة، بحيث تحددت وظيفتها مسبقاً في الدعاية والتحريض. وبذلك باتت الثقافة، بالنسبة للفصائل، مجرد ملحق بها، للتبرير والتجميل، وليس للفحص والنقد والتدبير. وبات المثقفون في الفصائل، في معظم الأحوال، مجرد ديكور أو تابع، بدل أن يكونوا قلبها وروحها الحيّة والمجدِّدة.

أما خارج ذلك، أي خارج علاقات الامتثال والتماثل فكانت علاقة المثقف الفلسطيني بالقيادات الفصائلية علاقات متوترة، ومتنابذة، ونقدية ولم تكن علاقات تكامل وتعاضد. وأمثلة ذلك كثيرة، في علاقة القيادة الفلسطينية بمركز الأبحاث ورئيسه أنيس صايغ، وبالأمين العام (الأسبق) لاتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين ناجي علوش، وبإدوارد سعيد، مثلاً، كما في علاقة هذه القيادة الفوقية بكل المؤسسات الثقافية والبحثية، التي عملت على تهميشها، على الرغم من أنها كانت تعمل تحت رعايتها.

وبديهي فإن شفيق الحوت بصوته النقدي المتفرد كان في مقدمة من رفع صوته ضد حال التفرد في القيادة، وضد ما رأي فيه انحرافاً سياسياً وفساداً سلطوياً في الواقع الفلسطيني.

في كل الأحوال، فإن الثقافة الفلسطينية التي ارتكزت على الشمولية، وقدست السلاح والقضايا، على حساب الناس وتطور المجتمع، أدت إلى طمس الصوت الخاص والمتفرد للمثقف، وهمشته، بدعوى ثقافة "الالتزام"، على حساب ثقافة الإبداع، وثقافة التطوير والتغيير والتحديث.

في هذه الحال، لم يكن ثمة مجال للمثقف المستقل (بمعنى عن الفصائل) لتوليد حالة ثقافية خاصة، فليس ثمة سلطة البتة لمثقف كهذا ، ليس له صحيفة ولا منبر ولا جامعة، وهو بالأصل ليس له مجتمع محدد في حيز جغرافي خاص به.

ومعلوم أن سلطة المثقف تستمد من جمهوره، أو من قرائه ومتابعيه، ومثلما أن المثقف العربي، يفتقد لسلطة كهذه، بواقع تدني نسبة القراءة والاهتمام بالثقافة في المجتمعات العربية، وبواقع هيمنة السلطة السياسية على الحيز الاجتماعي، فإن وضع المثقف الفلسطيني أكثر تعقيداً، وأكثر صعوبة.

الأنكى من ذلك أن الثقافة الجمعية أو الجماهيرية للمجتمعات الفلسطينية، التي تأسست على استعادة الماضي والعواطف والثأر، تغذّت من ثقافة "الأبوات" (من قادة الفصائل)، التي كانت تفتقر لثقافة المسؤولية والعقلانية والنقد والمحاسبة، في وضع احتلت فيه الفصائل، ومارست (كل بحجمه)، مواقع وسياسات سلطوية وشمولية في المجتمع الفلسطيني، ما أدى إلى استبعاد النخب والفعاليات الثقافية والاقتصادية عن التقرير بالشأن الفلسطيني، وهمشت المجتمع المدني، ما يتناقض مع الثورة التي يفترض أنها تعتمد على استنهاض قوى المجتمع.

أبو هادر

في هذا الإطار بالضبط، يمكن فهم الدور الكبير الذي اضطلع به شفيق الحوت، وأقرانه من الرعيل الأول، الذي وضع المداميك الأولى التي أسست للعمل الوطني الفلسطيني، ولمنظمة التحرير الفلسطينية، والتي صاغت شعاراته وخطاباته السياسية والكفاحية.

وفي هذا الإطار، أيضاً، يمكن فهم الخسارة الفادحة التي خسرتها الحركة الوطنية الفلسطينية جراء تهميش دور هؤلاء الرواد بسبب تنامي المصالح الفئوية الفصائلية على حساب المصالح الوطنية، وتنامي النزعة الشعبوية على حساب النزعة العقلانية، وهي على أية حال نزعة تدّعي الاعتماد على الشعب فيما هي تفرض وصايتها عليه، وتحوله إلى مجرد حالة صماء أداتية، ولا تلقي اهتماماً لمعاناته.

وما يميز الراحل شفيق الحوت، وأقرانه، أنهم اشتغلوا منذ البداية على تكريس البعد المؤسّسي في العمل الفلسطيني، وأنهم عملوا على تكريس التنوع والتعددية في الحركة الوطنية الفلسطينية، وسهروا على تمازج البعدين الكفاحي والعقلاني في الخطاب السياسي الفلسطيني.

وما يميّز أبا هادر أنه كان فلسطينياً وعروبياً في الوقت ذاته، وقائداً شعبياً ومثقفاً نخبوياً، في آن معاً. ومع مرونته وحيويته الفكرية والسياسية، فقد كان أبو هادر صلباً في التمسك بأصول العمل السياسي ومبادئ العمل الوطني، ما وضعه على سكة النقد للزعيمين الفلسطينيين الراحلين، أحمد الشقيري وياسر عرفات، لفرديتهما في العمل واحتكارهما القرارات. وهكذا استقال شفيق الحوت من عضوية اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير (سوياً مع محمود درويش)، بعيد توقيع اتفاق أوسلو (١٩٩٣)، فعقله وضميره لم يمكّناه من استيعاب طريقة فرض هذا الاتفاق، وقبول الإجحافات المتضمنة فيه.

مهزومون ومنتصرون!

في هذا الإطار، يمكن احتساب شفيق الحوت، كما قدمنا، ضمن مجموعة كبيرة من الشخصيات الوطنية، التي جرت إزاحتها أو تهميشها في العمل الفلسطيني، الفصائلي.

و"مهزومون ومنتصرون"، هو في الحقيقة استعادة لعنوان مقالة كان كتبها راحل آخر هو إدوارد سعيد (صحيفة **الحياة** "لندن" في أواسط التسعينيات)، في ذكرى راحل سبقه هو د. حنا ميخائيل (أبو عمر)، الذي سبق أن أخفي أو استشهد، وسط ظروف غامضة، في مطلع الحرب الأهلية في لبنان (١٩٧٦). وكانت جمعت الرجلين صداقة متميزة بدأت إبان دراستهما وعملهما (منذ أواخر الخمسينيات) في الجامعات الأمريكية، واستمرت بعد مغادرة حنا (أبو عمر) إلى الأردن ثم لبنان، حيث التحق بحركة فتح (القطاع الغربي)، وكان من مؤسسي التيار الديمقراطي في حركة فتح.

فعدا عن انتقاد سعيد (في مقالته المذكورة) لاتفاق أوسلو، فإن سعيد رأى في هذا الاتفاق تأثيراً سلبياً على حركة التحرر الفلسطينية، فمثلما "أن إسرائيل خرجت منتصرة وخسر الشعب الفلسطيني، فثمة في صفوفه أيضاً منتصرون وخاسرون".

وعند سعيد فإن أبا عمر، هو نموذج لهؤلاء "الخاسرين"، فهو يمثل "شخصية إنسان فذ .. ضحى بحياته .. كي تستمر وتتحقق المثل التي قامت من أجلها "الثورة الفلسطينية" .. وبحسب إدوارد، كان حنا مناهضاً لانتهاك السلطة، ومناهضاً للإنفاق التبذيري ونمط الحياة المبهرج .. عاش وفقاً لأفكاره ولم يفصَل قيمه الديمقراطية والعلمانية لتناسب سادة جدداً ومناسبات جديدة. ويعتقد سعيد بأن حياة أبي عمر التي "انتهت مبكراً بصورة مفجعة تكتسب حالياً أهمية أكبر. فحنا ميخائيل ليس بين المنتصرين في مسيرة السلام الحالية. ورفاقه في لبنان وأماكن أخرى لا يزالون في المنافي .. وفي تناقضٍ صارخ مع التنازل الكبير والاستسلام المذل، يمثل حنا ميخائيل نموذجاً لدور متميز، رجلاً لم يحط من شأن نفسه أو شعبه. لماذا؟ لأنه عاش أفكاره ومات في سبيلها. هكذا بهذه البساطة. وبالمثال الذي ضربه يعطي حنا درساً لأولئك الذين بقوا على قيد الحياة بعده".

على كل، فإنٍ استعادة عنوان "مهزومون ومنتصرون"، تصح على كثيرين، أيضاً، ومنهم إدوارد سعيد ذاته، الذي ربما كان يرى صورته في صورة قرينه أبي عمر، كما تصح على شفيق الحوت، وأنيس صايغ، وهشام شرابي، وإبراهيم أبو لغد، ووليد الخالدي (أطال الله عمره)، وغيرهم كثيرون.

ولعل من أهم علامات تخلف حركة التحرر الفلسطينية، التي هيمن عليها الأبوات، والعلاقات المحسوبية والزبائنية، إنها لم تستطع هضم هذا الطراز من المثقفين التنويريين والنقديين والديمقراطيين، ولا هذا الحد من النزاهة، ولا احتمال هذا القدر من الإصرار على الاحتكام لقيم العدالة والحقيقة.

وربما يصح القول إن الحركة الوطنية الفلسطينية، بـ"هزيمتها" لهؤلاء (بحسب التعبير المجازي لسعيد) انهزمت هي أيضاً، للأسباب نفسها، أي بسبب سيادة الروح البطركية والغوغائية وتفشي علاقات الفساد والمحسوبية فيها، ولتخليها، بالتالي، عن طابعها كحركة تحرر وطني.

برحيل شفيق الحوت (أبو هادر) فقد الفلسطينيون علماً من أعلامهم الخفاقة، وخسرت الصحافة عميداً من عمدائها، وفقدت الساحة الفلسطينية واحداً من قادتها.

شفيق الحوت ... حضور متجدد في الموت .. والحياة

نبيل عمرو

شفيق الحوت ... حضور متجدد في الموت .. والحياة

نبيل عمرو*

لحظة أسلم شفيق الحوت الروح ... كانت معارك المؤتمر العام السادس لـ«فتح» على أشدها، فلم ينتبه للحدث ... إلا أولئك الذين عرفوا الرجل عن قرب، وتابعوا دوره القوي والمميز في الحياة السياسية الفلسطينية.

غير أن قلة الاهتمام، بفعل الانشغال بحدث راهن، لا بد وأن تمر مر الكرام، ليستأنف الرجل حضوره في حياتنا، بما يليق بدوره ومآثره ... وفيما يتصل بشفيق الحوت، نضيف كلمة إبداعاته ... دون ترد.

كان شفيق، من ضمن النواة الأولى، التي شكلت منظمة التحرير، ولم يأت إليها مستجداً في السياسة والنضال، أو من ثنايا الاعتبارات المناطقية أو العشائرية أو المحاصصة الفصائلية، حيث يأتي من لا نعرف ويغادر دون أن نكترث ... فلقد جاء الرجل إلى أعلى قمة الهرم الفلسطيني باسمه وفعله .. وعمق التزامه.

كان فلسطينياً قومياً .. مارس فلسطينيته بتأسيس الخلايا الثورية التي شكلت فيما بعد جسد الثورة الفلسطينية المسلحة وروحها، ومارس قوميته من خلال إسهام مميز بالكلمة والموقف والموقع .. في زمن عبد الناصر، أي في ذلك الزمن الجميل الذي كانت فيه بيروت عاصمة كل شيء واعد في حياتنا من جميع جوانبها.

---

* عضو المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية.

لقد امتلك شفيق، جميع أدوات الحضور السياسي المؤثر من خلال عقله المتفتح المبادر، وقلمه المتقن، ولسانه الذي لم يتلعثم مرة وهو يعتلي المنابر الوطنية والقومية فارضاً إصغاءً عميقاً، مثلما كان يفرض جدلاً حاراً حول كل ما يقول أو يفعل.

قليلون ربما يعرفون، أن جميع دورات مجالسنا الوطنية، كانت تتعامل مع شفيق ... كما لو أنه الممثل الشرعي الأقوى، للفصيل الأهم من فصائل العمل الوطني، وأعني به ذلك التجمع النوعي للرجال المميزين والمؤثرين في واقعنا، من نسميهم تارة بالمثقفين وتارة أخرى بالمستقلين، ولكنهم دائماً الوطنيون الغيورون المبدعون.

كان لشفيق الحوت منبراً دائماً في مجالسنا، كما لو أنه البند الأكثر ثباتاً على جدول أعمالنا، وحين كان يعلن أن المتحدث هذه الليلة هو شفيق، تمتلئ القاعة الكبرى، حتى الممرات، بمن يتشوقون للاستماع إلى الصوت الجهوري، الذي ينطق بالحقيقة، على الرغم من انزعاج كثيرين منها، وفي مقدمتهم القادة الرسميون.

وحتى حين كان عضواً في الإطار القيادي الرسمي، لم يكن ليتخلى عن اجتهاده ... وصراحة انتقاده لمواقف يفترض أنه شريك في اتخاذها بحكم الموقع، كان يعتبر المثول أمام المجلس الوطني بمثابة لحظة ضمير، ينبغي أن يبعد عنها السياسة بمفهومها المهني المجرد لمصلحة المبادئ الوطنية بمفهوم الالتزام العميق بها وبما وجدت من أجله.

ما دافع يوماً عن موقف رسمي، ولا سخر قلمه، حتى لمن ينفقون على المنبر الذي يستخدمه كصحافي محترف، كان قوياً في المهنة، بحكم قوته في التأسيس والانتماء والحضور، وهذا ما جنبه مثلبة الخضوع لأهواء أصحاب المنابر وأجنداتهم، وكرسه وهو الكاتب المتقن والسياسي المتطور كوطني سخر الصحافة والسياسة لما يؤمن ويعتقد.

ذات مرة، وحين كان وجود الشاعر الكبير محمود درويش ضرورياً في اللجنة التنفيذية، كوردة تعلق على صدر الإطار، كان شرطه للقبول، أن يكون أبو الهادر عضواً في اللجنة، ولأن ياسر عرفات كان يعرف قيمة الرجلين، بادر إلى القول... ومن قال لك إنني أستطيع الاستغناء عن شفيق في هذه المرحلة الحرجة ... ولكن قل لي لماذا هذا الشرط ... قال محمود

... لأن شفيق من القلائل في القيادة من يجيد القراءة والكتابة والتفكير والحديث، أريده كي أشكل وإياه جبهة مميزة داخل الإطار ... .

لم يكن شفيق يعرف الخوف أو الحرص الساذج على الحياة الشخصية، وحين كان يلاحق بالقذائف من مكان إلى آخر ... ويخرج من الركام بمحض الصدفة، كان يدرك أنه يسير على الخط الصحيح، ذلك أن القذيفة تعتذر حين يكون الهدف لا يستحق!

عقب مداخلة بالغة القوة والتأثير أمام المجلس الوطني، قسا كثيراً على ياسر عرفات، وكلما كان يصعد من لهجته كلما استحوذ على حماسة أشد، حتى اضطر ياسر عرفات إلى مجاراة البلاغة المؤثرة بالتصفيق وقوفاً.

وفي لحظة صمت ... هتف عرفات .. والله يا شفيق لو قلت نصف هذا الكلام عن أي زعيم غيري لما غادرت السجن يوماً واحداً إن لم يحدث لك ما هو أفدح.

ضحك شفيق. وعلق: إن كنت تقصد إخافتي فأنت تعرف أنني لا أخاف، وإن كنت تقصد احتوائي فأنا لا أحتوى، أما إذا كنت مقتنعاً بما أقول ولهذا تصفق .. فشكراً لك لأن كلماتي وصلت ... واستدرك، لأنك تستمع جيداً للنقد، فإننا نحبك.

لم يغادر شفيق حياتنا بصمت، فلقد ظل حتى الأيام الأخيرة حاضراً بقوة، عبر رأي إن اختلفنا معه فيه، إلا أننا لا نملك إلا أن نحترمه، وظل حاضراً بتميز عبر إعادتنا لقراءة مؤلفاته، وفي كل مرة كنا نكتشف أن الرجل يكتب عن اللحظة دون تأثر بالزمن.

وظل حاضراً بحب. كلما رأينا قائداً اكتسب نجوميته بفعل مقومات عديدة إلا القدرة والكفاءة، فيلوح في ذاكرتنا ذلك الرجل الطويل العريض ذو الصوت الجهوري، والنظرات القوية، والفكر الثاقب، لنقول سقى الله أيامك يا شفيق ... إن مثلك لا يموت.

اعتمد هذا النص على كتب شفيق الحوت التالية:

"عشرون عاماً من منظمة التحرير" ١٩٦٤-١٩٨٤: دار الاستقلال للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٦.

لحظات لها تاريخ: الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، سلسلة كتاب الشرق الأوسط، جدة، ١٩٨٦.

اليسار والقومية العربية: الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩.

حقائق على طريق التحرير: (سلسلة أبحاث فلسطينية – رقم ٤)، مركز الأبحاث – منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٦.

الفلسطيني بين التيه والدولة: ١٩٧٧.

يوميات ابن البلد: (كتابات ساخرة)، دار المحرر، بيروت، ١٩٧٩.

لكي نحرث في الأرض: أحاديث مستقبلية، دار الاستقلال للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٦.

اتفاقية غزة-أريحا أولا/ الحل المرفوض: أوراق الاستقلال – رقم ٢، دار الاستقلال للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٤.

بين الوطن والمنفى: سيرة ذاتية، دار الريس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠٠٧.

منشورات مواطن

سلسلة دراسات وأبحاث

العَتَبَة في فتح الإبستيم
إسماعيل ناشف

العمالة الفلسطينية في إسرائيل ومشروع الدولة الفلسطينية
ليلى فرسخ

مدخل في تاريخ الديموقراطية في اوروبا
عبد الرحمن عبد الغني

النســـاء والقضـــاة والقانـــون: دراسة أنثروبولوجية للمحكمة الشرعية في غزة
نهضة يونس شحادة

نساء على تقاطع طرق: الحركة النسوية الفلسطينية بين الوطنية والعلمانية والهوية الإسلامية
إصلاح جاد

في المسألة العربية: مقدمة لبيان ديمقراطي عربي
عزمي بشارة

تمكين الأجيال الفلسطينية: التعليم والتعلم تحت ظروف قاهرة
تفيدة جرباوي وخليل نخلة

ءوَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ»: الإسلاميون والديمقراطية
رجا بهلول

فلسطين الى أين؟ تلاشي حل الدولتين (باللغة الإنجليزية)
تحرير جميل هلال

الطبقة الوسطى الفلسطينية، بحث في فوضى الهوية والمرجعية والثقافة
جميل هلال

النظام السياسي الفلسطيني بعد اوسلو: دراسة تحليلية نقدية (طبعة ثانية – مزيدة)
جميل هـــلال

نظريات الانتقال إلى الديمقراطية : إعادة نظر في براديغم التحول
جوني عاصي

من التحرير إلى الدولة : تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٤٨- ١٩٨٨
هلغى باومغرتن

تقاسيم زمّار الحيّ - مقالات
فيصل حوراني

بروز النخبة الفلسطينية المعولمة (باللغة الانجليزية والعربية)
ساري حنفي وليندا طبر

الحداثة المتقهقرة : طه حسين وأدونيس
فيصل دراج

صفد في عهد الانتداب البريطاني ١٩١٧ - ١٩٤٨
مصطفى العباسي
بالتعاون مع مؤسسة الدراسات الفلسطينية والمقدسية

الجبل ضد البحر
سليم تماري

من يهودية الدولة حتى شارون : دراسة في تناقض الديمقراطية الإسرائيلية
عزمي بشارة

تشكل الدولة في فلسطين (باللغة الانجليزية)
تحرير : مشتاق خان، جورج جقمان، انج أمندسن

مستقبل النظام السياسي الفلسطيني والآفاق السياسية الممكنة
تحرير : وسام رفيدي
وقائع مؤتمر مؤسسة مواطن، ومعهد ابراهيم ابو لغد ٢٠٠٤

التربية الديمقراطية، تعلم وتعليم الديمقراطية من خلال الحالات
ماهر الحشوة

حركة معلمي المدارس الحكومية في الضفة الغربية ٢٠٠٠-١٩٦٧
عمر عساف

المجتمع الفلسطيني في مواجهة الاحتلال : سوسيولوجيا التكيف المقاوم خلال انتفاضة الاقصى
مجدي المالكي واخرون

اسطورة التنمية في فلسطين : الدعم السياسي والمراوغة المستديمة
خليل نخلة

جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨-١٩٤٨
فيصل حوراني

القطاع العام ضمن الاقتصاد الفلسطيني
نضال صبري

هنا وهناك نحو تحليل للعلاقة بين الشتات الفلسطيني والمركز
ساري حنفي

تكوين النخبة الفلسطينية
جميل هلال

الحركة الطلابية الفلسطينية : الممارسة والفاعلية
عماد غياظة

دولة الدين، دولة الدنيا : حول العلاقة بين الديمقراطية والعلمانية
رجا بهلول

النساء الفلسطينيات والانتخابات، دراسة تحليلية
نادر عزت سعيد

المرأة وأسس الديمقراطية
رجا بهلول

النظام السياسي الفلسطيني بعد اوسلو : دراسة تحليلية نقدية
جميل هلال

ما بعد اوسلو : حقائق جديدة (باللغة الانجليزية)
تحرير : جورج جقمان

ما بعد الازمة : التغييرات البنيوية في الحياة السياسية الفلسطينية، وآفاق العمل
وقائع مؤتمر مواطن ٩٨

التحرر، التحول الديمقراطي وبناء الدولة في العالم الثالث
وقائع مؤتمر مواطن ٩٧

اشكالية تعثر التحول الديمقراطي في الوطن العربي
وقائع مؤتمر مواطن ٩٦

العطب والدلالة في الثقافة والانسداد الديمقراطي
محمد حافظ يعقوب

رجال الاعمال الفلسطينيون في الشتات والكيان الفلسطيني
ساري حنفي

مساهمة في نقد المجتمع المدني
عزمي بشارة

حول الخيار الديمقراطي
دراسات نقدية

سلسلة رسائل الماجستير

الإنتخابات والمعارضة في المغرب بين التحول الديمقراطي واستمرارية النظام السلطوي (١٩٩٧-٢٠٠٧)
نشأت عبد الفتاح

عن النساء والمقاومة: الرواية الاستعمارية
أميرة محمد سِلْمي

التغيير السياسي من منظور حركات الإسلام السياسي: «حماس» نموذجا
بلال الشوبكي

المجتمع المدني «بين الوصفي والمعياري»: تفكيك إشكالية المفهوم وفوضى المعاني
ناديا أبو زاهر

النقد والثورة: دراسة في النقد الاجتماعي عند علي شريعتي
خالد عودة الله

حركة «فتح» والسلطة الفلسطينية: تداعيات أوسلو والانتفاضة الثانية
سامر إرشيد

سلسلة مداخلات واوراق نقدية

أن تكون عربياً في أيامنا
عزمي بشارة

المنهاج الفلسطيني اشكاليات الهوية والمواطنة
عبد الرحيم الشيخ (محرراً)

الحريات المتساوية حقوق المرأة بين الديمقراطية – الليبرالية وكتب التربية الإسلامية
وليد سالم وإيمان الرطروط

اليسار والخيار الاشتراكي قراءة في تجارب الماضي، واحتمالات الحاضر
داوود تلحمي

تهافت أحكام العلم في إحكام الإيمان
عزمي بشارة

الديمقراطية والإنتخابات والحالة الفلسطينية
وليم نصار

إطار عام لعقيدة أمن قومي فلسطيني
حسين آغا وأحمد سامح الخالدي

نحو أممية جديدة: قراءة في العولمة/ مناهضة العولمة والتحرر الفلسطيني
علاء محمود العزة وتوفيق شارل حداد

التنظيمات والأحزاب السياسية الفلسطينية
جميل هلال

الأحزاب السياسية الفلسطينية والديمقراطية الداخلية
طالب عوض وسميح شبيب

الراهب الكوري . . سَفَر وأشياء أخرى
زكريا محمد

واقع التعليم الجامعي الفلسطيني: رؤية نقدية
ناجح شاهين

طروحات عن النهضة المعاقة
عزمي بشارة

ديك المنارة
زكريا محمد

لئلا يفقد المعنى (مقالات من سنة الانتفاضة الاولى)
عزمي بشارة

في قضايا الثقافة الفلسطينية
زكريا محمد

ما بعد الاجتياح : في قضايا الاستراتيجية الوطنية الفلسطينية
عزمي بشارة

المسألة الوطنية الديمقراطية في فلسطين
وليد سالم

الحركة الطلابية الفلسطينية ومهمات المرحلة تجارب وآراء
تحرير مجدي المالكي

الحركة النسائية الفلسطينية اشكاليات التحول الديمقراطي واستراتيجيات مستقبلية
وقائع مؤتمر مواطن ٩٩

اليسار الفلسطيني : هزيمة الديمقراطية في فلسطين
علي جرادات

الخطاب السياسي المبتور ودراسات أخرى
عزمي بشارة

أزمة الحزب السياسي الفلسطيني
وقائع مؤتمر مواطن ٩٥

المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في فلسطين
زياد ابو عمرو واخرون

الديمقراطية الفلسطينية
موسى البديري واخرون

المؤسسات الوطنية، الانتخابات والسلطة
اسامة حلبي واخرون

الصحافة الفلسطينية بين الحاضر والمستقبل
ربى الحصري واخرون

الدستور الذي نريد
وليم نصـار

سلسلة اوراق بحثية

دراسات اعلامية ٢
تحرير : سميح شبيب

دراسات اعلامية
تحرير : سميح شبيب

الثقافة السياسية الفلسطينية
باسم الزبيدي

العيش بكرامة في ظل الاقتصاد العالمي
ملتون فيسك

الصحافة الفلسطينية المقروءة في الشتات ١٩٦٥-١٩٩٤
سميح شبيب

التحول المدني وبذور الانتماء للدولة في المجتمع العربي والاسلامي
خليل عثامنة

المساواة في التعليم اللامنهجي للطلبة والطالبات في فلسطين
خولة الشخشير

التجربة الديمقراطية للحركة الفلسطينية الاسيرة
خالد الهندي

التحولات الديمقراطية في الاردن
طالب عوض

النظام السياسي والتحول الديمقراطي في فلسطين
محمد خالد الازعر

البنية القانونية والتحول الديمقراطي في فلسطين
علي الجرباوي

سلسلة التجربة الفلسطينية

شفيق الحوت
سميح شبيب (محرراً)

أنيس صايغ والمؤسسة الفلسطينية السياسات، الممارسات، الإنتاج
سميح شبيب (محرراً)

انتفاضة الأقصى: حقول الموت
محمد دراغمة

أحلام بالحرية (الطبعة الثانية)
عائشة عودة

الواقع التنظيمي للحركة الفلسطينية الأسيرة دراسة مقارنة ١٩٨٨-٢٠٠٤
اياد الرياحي

مغدوشة: قصة الحرب على المخيمات في لبنان
ممدوح نوفل

يوميات المقاومة في مخيم جنين
وليد دقة

أحلام بالحرية
عائشة عودة

الجري الى الهزيمة
فيصل حوراني

أوراق شاهد حرب
زهير الجزائري

البحث عن الدولة
ممدوح نوفل

سلسلة مبادئ الديمقراطية

ما هي المواطنة؟	المحاسبة والمساءلة
فصل السلطات	الحريات المدنية
سيادة القانون	التعددية والتسامح
مبدأ الانتخابات وتطبيقاته	الثقافة السياسية
حرية التعبير	العمل النقابي
عملية التشريع	الاعلام والديمقراطية

سلسلة ركائز الديمقراطية

التربية والديمقراطية
رجا بهلول

حالات الطوارئ وضمانات حقوق الانسان
رزق شقير

الدولة والديمقراطية
جميل هلال

الديمقراطية وحقوق المرأة بين النظرية والتطبيق
منار شوربجي

سيادة القانون
اسامة حلبي

حقوق الانسان السياسية والممارسة الديمقراطية
فاتح عزام

الديمقراطية والعدالة الاجتماعية
حليم بركات

سلسلة تقارير دورية

تطوير قواعد عمل المجلس التشريعي نحو قانون للسلطة التشريعية
إعداد : جهاد حرب اشراف: عزمي الشعيبي

نحو نظام انتخابي لدولة فلسطين الديمقراطية
جميل هلال، عزمي الشعيبي وآخرون

الاعمال التشريعية الصادرة عن رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية
سناء عبيدات

دراسة تحليلية حول أثر النظام الانتخابي على تركيبة المجلس التشريعي القادم
احمد مجدلاني، طالب عوض